ومن كل خذلان. وهذه الأعمال الإجرامية هي إحدى العقوبات التي يفرضها شيوخ الطريق على مريديهم. وقد وضعوا في بيان هذه العقوبات كتباً متداولة. ولا يدري كيف أن تعز أمة تقبل في نفسها طائعة مختارة كل هذا الهوان بإسم الدين وعلى حساب التأديب والتسليك؟ هذه كلمة معترضة، فلنرجع إلى رأس البحث.

وقد ظهر بهذا أن العقيدة القائمة على الإيمان بقدرة الأرواح وتصرفها قد احتلت عندنا - وما فتئت تحتل - مكاناً واسعاً جداً، وسرقت منا، وما زالت تسرق، أعمالاً وأفكاراً وخيالاً كان الواجب علينا أن ننتفع بها، وأضاعت علينا قوى جسدية وعقلية كان حرياً بنا أن تحتفظ بها وألا نضيع منها شيئاً، وأنها قد أفسدت علينا نظرنا إلى الحياة وحكمنا على الأشياء وسيرنا نحو الطريق.

وكيف يمكن أن يسير في طريقه ثابت الخطوات، رابط الجأش، مطمئن الجنان من يعتقد من أعمال نفسه أن الأرواح المستبدة الظالمة محيطة به من كل جانب، مسددة إليه سهامها، مصوبة أظافرها، فاغرة أفواهها لتبتلعه وتهضمه، قادرة على أن تصنع به ما تشاء من إمراض وقتل وتخبيل وغير ذلك، لا يمنعه منها إلا رحمتها هي إن كان لها رحمة، وإلا إن كانت لا تريد أن تصنع شيئاً، بل كيف يمكن أن يستقيم تفكير مثل هذا الإنسان ويسلم له عقله.

وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح وبالجان وبالملائكة وبكل ما جاء عن الله ورسوله. ولكننا ننكر الفوضى، وننكر أن يكون الله قد ترك خلقه بلا نظام وبلا قانون يلزمهم الحدود ويريهم السبيل، أو أن يكون قد تخلى عنهم للفوضى وللطغيان المطلق.

ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الإصابة بالعين أو النظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد، فإن الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة. ومسألة الإصابة بالعين مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية، ولإعتقادها أثر جسيم في حياة الكثيرين وفي عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام. ولها فعل سحري في قوتهم العصبية والإرادية والعقلية.

وقد تفنن الخاصة والعامة في هذه المسألة، وأكثروا من ذكر أخطارها وشدة فتكها وإتساع نطاق أعمالها، ثم تفننوا في ذكر أساليب الوقاية والعلاج منها وإتقائها، وخلدوا على صفحات الكتب أشياء عجيبة في ذلك. أما فتكها ومجال عملها فقد ذهبوا يزعمون - أو كادوا - أن جميع الأمراض التي يعرفون والتي

يجهلون هي من الإصابة بالعين: فإذا مرض الإنسان أو أصيب بحادثة أو بمصيبة مالية أو مادية أو مات، قالوا إنها العين! بل لم يخصوا الإنسان بهذا، فقد عدوه إلى الحيوان والجماد: فالعين تقتل الحيوان وتهلك الزرع بل وتغرق السفن وتسقط الطيارات! وقد حدثني إنسان يظنه بعض الناس عالماً أن رجلاً يعرفه أغرق بارجة حربية بمجرد أن رآها وقال فيها كلمة! وزعم آخر أن رجلاً آخر أسقط طيارة وأسر رجالها فجزته السلطات العسكرية على عينه وعلى قوة روحه! ولو أنك زرت جماعة من هؤلاء الضعاف الأعصاب والمعرفة والعقول، فرأيت أحد أطفالهم ثم أصيب في ذلك اليوم أو بعده بأيام لزعموا أنك القاتل! ولو أنك دخلت متجراً من متاجر هؤلاء الذين تعرفهم ويعرفونك، ثم حدث لذلك المتجر أو لأصحابه حدث لقالوا إنك صاحب الحدث وصاحب السر المشؤوم! وأنا أعرف إنساناً زعمه فريق من الناس عالماً ذهب مرة هو وابن له صغير في زيارة أحد أصدقائه، فمرض الطفل بعد رجوعه فمات، فزعم هذا الإنسان أن الذي أمرض ولده وقتله هو ذلك الصديق الذي زاره...

والحكايات والروايات في هذا الباب لا يمكن إحصاؤها ولا جمعها. ولا أحسب بيتاً من بيوت هؤلاء يخلو من هذه المبالغات والمعتقدات.

وقد حاولوا أن يسموا خرافاتهم هذه بسمة الدين وأن يضيفوها إلى مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام، فذهبوا ينسبون إليه روايات تصدق ما اعتقدوا! وقد عزوا إليه أنه عليه السلام قال: (أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين)، (نصف ما يحفر لأمتي من القبور من العين)، (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر) ورووا أنهم كانوا إذا أصابت إنساناً عين أو شيء بعثوا إلى أم سلمة – إحدى زوجات النبي – طالبين منها أن تبعث إليهم بشعرات كانت لديها من شعر الرسول للإستشفاء بها! وذكروا أنه عليه السلام أمر أن تغسل عورة العائن والمواضع القذرة من بدنه ثم تجمع الغسالة ثم تصب على المعين ويسقاها! وعزوا إليه – وهذا أكبرها – أنه عليه السلام كان أحياناً يخاف نفسه على ما يرى – أي يخاف أن يصيبه بعينه – مع أنهم زعموا أن الإصابة بالعين لا تكون إلا من الأنفس الشريرة الخبيثة...

فكل عين عند هؤلاء عبارة عن موت موجه إليهم وإلى من يحبون وما يحبون! فأين يفرون وكيف يسلمون؟

أما ما قالوا وما ذكروا وما عملوا من أجل الوقاية والعلاج من هذا الخطر المحيط الشامل فهو أخزى وأنكى: فقد أعدوا من الأسلحة الدفاعية لعدوهم هذا أشياء سرية وغير سرية، وأحياناً سحرية! فمن هذه الأسلحة الدفاعية التمائم (أو الأحجبة.) وهذه أنواع لا يعرفها تمام المعرفة إلا الفنيون المختصون بصناعتها وتركيبها ووضع تصميماتها، ومصانعها سرية تحت العقل أو تحت الجهل لا يصل إليها أحد من العقلاء... ومن هذه الأسلحة الطلاسم والألغاز والحروف المقطعة، ومنها حمل النجاسات والقاذورات والبعد عن الماء والنظافة. ومنها تعليق الجماد والأخشاب في أعناق من يخشى عليهم... إلى آخر هذه الأمور التي يعرفها الجاهلون.

وقد حاولوا أيضاً أن يعزوا هذه الترهات إلى الدين وإلى أهله من الصالحين: فذكروا أن الرسول عليه السلام أمر بالجماجم أن تنصب في الزرع! فقال الراوي: من أجل ماذا؟ فقيل له من أجل العين. قال في مجمع الزوائد: رواه البزار. وذكروا عن الخليفة عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال لأهله دسموا ذقنه - وفي رواية أنه رأى صبياً تأخذه العين فقال دسموا نونته... والتدسيم هو التسويد... وفي كتاب (كشف الخفا) للشيخ العجلوني قال: ومما جرب لمنع الإصابة من العين تعليق خشب السبتان! ولذا فقد بلغني عن ولي الله العراقي أنه لم يكن يفارق رأسه، واقتفيت أثره فيه!!

وذعر الناس من العين بالغ، وهوسهم في محاولة العلاج والوقاية أبلغ. ومن أعظم ما في هذا الإعتقاد من الأضرار أن جماعات كثيرة تخاف النجاح البارز الظاهر لأنها تخاف الإصابة بالعين! وأعرف إنساناً رفعته هذه الحرب فنال بعض النجاح، فأخذت تأكله الأوهام والظنون من هذه الناحية، وصار يحسب أن عيون الناس كلهم سهام مصوبة إليه وإلى متجره... وقد راح يتخاذل ويتظاهر بالأمراض والمصائب، آملاً أن يدفع العيون المصيبة المصوبة عنه! وهو يقول إن من ينظر إليه الناس فلن يفلح. وصار إذا ما حدث عنده أصغر حادث يضيفه إلى أعين الناس! ولا شك أن أقل هذه الأوهام كاف لتخذيل صاحبها وللقعود به عن التحليق في سماء النجاح اللامع. ولن يدرك الخير المرجو رجل يرى أن الناس يستطيعون قتله أو إمراضه أو إصابته بداهية إذا ما برز في ناحية من نواحي الحياة... وأضرار هذه الخرافات النفسية والعقلية والعصبية والإجتماعية أكبر

من أن توصف وأظهر من أن تخفى.

نعم جاء في الأحاديث التي رواها المحدثون أن العين حق، وأنه لو كان شيء سابقاً القدر لسبقته العين، ولكن هل هذه الأحاديث في سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين وفي صدد مما قالوا واعتقدوا؟ كلا، فإن كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفاً وغاية مما يتوهمون.

فالعين حق، فإن الإنسان الشرير يرى بعينه، فيحقد ويحسد بقلبه، ثم يصيب بأعماله وكيده... والعين حق أيضاً، فإن في كثير من العيون قوة آمرة ناهية، بل قاتلة آسرة وإن الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحياناً إلى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر، ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد ما يرجو، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته، فيصبح بينهم الآمر الناهي المتصرف، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود أو الأستاذ المعبود: القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه.

إننا أحياناً كثيرة ليأخذنا العجب من إستبعاد شخص لأمة، وعبادة أمة لشخص، فنذهب نتلمس الأسباب والعلل بعيداً وقريباً، مع أن الأسباب قد تكون في عين ذلك الشخص المعبود ونظراته، وقد تكون في مظهره، وقد تكون في صوته ونغمه... إنها فيه على كل حال، وإن سلطانه معه وفي ذاته! فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات، وهذه العيون الآسرات القاهرات، وهنيئاً لهم السيادة الظاهرة والباطنة.

وقد كنت أعرف شيخاً يكاد يعد من الناحية العلمية في غمرة الجاهلين، ومن الناحية الذوقية الأدبية السلوكية في زمرة السفهاء المتوقحين، وهكذا هو في كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أو لا يكاد يستطيع أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونفثها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه! إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد، وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد... إنه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدي الغاسلين، لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم وحتى يريد منهم هو، وفرض عليهم أن يخشعوا في حضرته خشوع الصالحين العابدين في صلواتهم،

أو ذلك المشركين أمام أصنامهم، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله في أقرب موقف يقفونه منه تعالى: ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عبيده، ثم كتب لهم هذه الفروض في كتاب من كتبه التي زورتها يداه، ثم أمرهم بأن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظاً من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا... وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا: هل من مزيد من هذه العبادات والفروض! فما سر هذه القوة في هذا المخلوق؟ إنها أسرار عديدة، وإن أقواها أو من أقواها ما في نظراته وعينيه من سحر خبيث.

والعين حق أيضاً. فإن الإنسان ينظر بعينيه، فيشتهي بقلبه، فيهلك بعمله وسعيه إن لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوي غالب. ولهذا جاء في حديث نبوي: (النظرة بسهم مسموم من سهام إبليس.) وليس هنالك أحق من تلك العيون التي يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالإنسان وسخرته وأذلت كبرياءه وساقته إلى الخير حيناً وإلى الشر أحياناً، وظلت ذات النفوذ الذي لا يقاوم، والسلطان الذي لا ينازع ولا ينزع، في عصور الإنسانية كلها: في عصور البربرية والوحشية، وعصور المدنية المهذبة الراقية! ولهذا جاء في الأوامر الدينية نهي الجنسين معاً عن الإستسلام لسلطان هذه النظرات والعيون، وأمروا جميعاً بالغض من أبصارهم.

وهنالك أشياء أخرى هي حق أيضاً أشار الكتاب إلى بعضها بقوله "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر"، وهذه هي نظرات العداء والكره والغيظ.

والعين هي مفتاح شخصية الإنسان، ومفتاح أسراره، ومجتمع قواه ومعانيه المختلفة. ففيها يتجلى الحب والبغض والعداوة والصداقة والرحمة والقسوة والذكاء والغباء والقوة والضعف والحزن والسرور والصحة والمرض والأمر والنهي والهدوء والقلق وكل تلك المعاني التي يشتمل عليها الإنسان والتي تكمن في أعماقه ووراء مظهره الخداع... فكان الحديث عنها من أجل ذلك حديثاً يتسع ويتنوع ويتلون، وكانت من أجل ذلك حقاً ودلالتها حقاً. وما من شيء في الإنسان يصدق في دلالته ويجمع من المعاني فيها مثلها في صدق الدلالة وكثرتها... وقد تتقدم دراستها في المستقبل ودراسة أسرارها حتى يصبح من اليسير الممكن

معرفة كل ما يضمره المرء وما يجول بخاطره من الصدق والكذب ومن التصديق والتكذيب وصحة التهمة الموجهة إليه وبراءته منها، ومن الغدر والخيانة وسلامة الضمير وخبثه ونفاقه وإيمانه، وغير ذلك مما تراد معرفته وعلمه، ويريد المرء إخفاءه وكتمانه يساعده على هذا الكتمان طبعه ولسانه... وحينئذ تتكشف حقائق، كان التحقيق البارع يعجز عن كشفها وينفق ما ينفق في هذا السبيل ثم لا يظفر بشيء. فقول الرسول عليه السلام (العين حق) قول يعبر عن أصدق المعاني وأصدق الحقائق وأصدق الدلائل وأجمعها.

وإن من أعجب الأشياء السر الذي يصر صاحبه على أن يطويه في طواياه، فإنه يكون من أبعد الأشياء بينما هو من أقربها! وقد استطاع العلم الإنساني أن يصعد إلى الشموس وإلى المجرات؛ يعددها ويقدرها ويعلم كل ما هنالك، ولكنه يقف حائراً عاجزاً عن الوصول إلى سر طفل بين يديه يأبى إلا أن يكتمه ويأبى البوح به! فلا بد من وسيلة لمعرفة هذا القريب البعيد... وقد تكون قراءة العيون إحدى الوسائل التي ستحقق هذه الغاية... ولا أجمل من قول الله "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، فجمع بين علم السر الذي في الصدور، وبين علم ما في العيون من خيانة ومن معان أخرى. فكأنه يشير إلى أن هذا هو مفتاح هذا، ويشير إلى الصلة الكبيرة بينهما. فأخبار النبوة الصحيحة حق ومراميها ومعانيها أعلى وأسمى من هذه المعاني الصغيرة المفسدة للهيئة الإجتماعية والتي تنشر الفوضى والخيال المضطرب القاتل.

* * *

وها هنا مسألة كبرى، نشأت أيضاً من الجهل بسنة الله وسنة الحياة ومن الإعتقاد بأن هذا العالم ليس محكوماً بالنواميس والقوانين.

ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا، لأن دينهم حق، والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبداً وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم، وأن الإسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى، لأنه الدين المرضي لله، والله لن يترك ما يرضاه للخذلان والهزيمة... وقد عملوا على أن يصححوا هذه الأغلوطة بالإستدلال بآيات قرآنية مطلقة مجملة نسوا قيودها وشرائطها، فأمعنوا ضرباً في متاهات الأوهام، وإستمتاعاً بأضغاث الأحلام، وظلوا سادرين حتى فجئهم العالم، فانتبهوا مذعورين لا يدرون من أين ولا كيف،

وقاموا يتلمسون الطريق، وقمنا معهم ومثلهم، نتلمس الطريق أيضاً، ولكننا وجدنا بعد هذه النومة الطويلة والأحلام الثقيلة أن أعلام الطريق قد عفت أو كادت وأن الرقاد الطويل الثقيل الذي هنئنا به قد باعد بيننا وبين الأمم اليقظى التي لم يغمض لها جفن. فكيف ومتى اللحاق؟

إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج: أولاها أنه يعطل عن السير إلى الغاية المطلوبة، وثانيها أنه يوجد جهة أخرى مضادة – وهذا فيه أمران: الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول. وثالثها إفساد العقل، فإن الأوهام تأكل العقول، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره. ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز وحتى يتخلى عن وظيفته، كما شوهد ذلك في الأمم وفي الأفراد التي تكثر أوهامها.

ومن العجيب المؤلم أن أكثر المسلمين لا يزالون يدينون لهذا الوهم القاتل بعد أن فضحه الواقع حتى لم يدع لصدقه وصحته إحتمالاً، ولا يزالون يحاولون تجربته المرات بعد المرات، ولا يزالون يرون أن التجارب الماضية كلها غير كافية ولا مغنية، ولا يزالون مستعدين لأن يقضوا أوقاتاً أخرى، الله أعلم بمقدارها، مطبقين أجفانهم على هذه الأحلام جاعلين أصابعهم في آذانهم حذر أن يسمعوا صور الحقيقة يرن ذلك الإرنان الذي أفزع أهل المشارق والمغارب، فنهضوا منطلقين إلى غاياتهم هذا الإنطلاق الذي لا تستطيع قوة من قوى الأرض أن تقفه.

وقد إنتشرت في الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة، تنادي كلها بلسان هذه الأغلوطة التاريخية الكبرى، وراحت كلها تهيب بالمستمعين إليها وتطعم أعصابهم الجائعة المتعبة وأمانيهم المحرومة بهذه الأماني، معللة نفوسهم الجدباء، بأن تمطر عليهم الغيث بدون سماء، وأن تصلهم بأضخم الآمال، بدون أن يتكلفوا أقل الأعمال... وقد أصابت هذه الجمعيات شباناً ورجالاً طالما أرهقهم الحرمان، وطالما ذهبوا يتلمسون في زوايا حياتهم الضيقة أشياء كان المفروض من الجهة الإنسانية أن يجدوها وأن يتمتعوا بها كبشر، وطالما أحسوا أن أموراً، لا يدرون ما هي، قد حرمت عليهم. فهم ينشدونها وإن كانوا لا يدرون ما هي، ولا يدرون أين هي، فصاروا يتلفتون حيث لا جهة، وينظرون حيث لا منظر، وكانوا في أشد الحاجة إلى من يعقدون عليه أبصارهم ويربطون به آمالهم، وينيخون عنده بحاجهم، فما إن مرت بأسماعهم أصوات

هؤلاء الدعاة، زاعمين لهم أن ما فقدوه موجود لديهم حتى أصاخوا وحتى اندفعوا إليهم كأنما أصابتهم جنة.

إن المشكلة الكبرى أن النفس الإنسانية دائماً يوجد فيها فراغ واسع للآمال، وأن هذه الآمال متجددة أبداً: فهي مهما بلغت من الظفر تشعر أنها محتاجة، وأنها فاقدة، وأنها يجب أن تأخذ وأن تعطي. فكل من يضرب لها على هذا الوتر - وتر الآمال المفقودة المطلوبة - وكل من يغني لها بهذه الأنشودة الخالدة - أنشودة الحاجات التي يجب أن تؤخذ أو تعطى - يجد في جوانب النفس الإنسانية وفي فراغها مجالاً واسعاً للعمل ودولة مستعدة للإستسلام والخضوع والنزول عن الحرية! فلا عجب إذا قامت دولة هؤلاء الناعبين بالآمال، الناعقين للجماهير المضللة، ملوحين لهم بما لن ينالوا. ولا يجب أن نعجب إذا وجدنا مخبولاً يهذو، ويمني بالمستحيلات، قد نجح وأخذ برقاب الآلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية، يقودها حيث شاء. فإنه قد هاجم أضعف جانب فيهم - وهو جانب الرجاء والأمل - فانتصر عليهم بدون عناء! وعلى هذا فمن البعيد الصعب الوقوف في سبيل هؤلاء المخادعين وفي سبيل إستيلائهم على الجماعات بواسطة التلويح لها بآمالها. وعلى هذا يجب ألا يعد نجاح هؤلاء دليلاً على أن لهم قيمة بل يجب أن يعد دليلاً على ضعف النفس الإنسانية المؤملة المرجية.

قد عرف أن الفقراء والبائسين والمصابين من أسرع الناس سيراً وراء الدعوات والمذاهب والشيع القائمة على إعطاء أسخى الوعود وعلى إشباع جانب الأماني والرغبات في النفس، وأنهم أكثرهم إنخداعاً وحماسة وتضحية في سبيلها... وقد يبدر إلى أذهان كثيرين أن السبب في ذلك أنهم - أي الفقراء والبائسين والمصابين - خيرون دون الأغنياء والكبراء الذين قد يجانبون أمثال هذه الدعوات والشيع وقد يناوئونها... ولكن ليس هذا هو السبب بلا ريب، وإنما السبب أن الأولين أبعد من الأخيرين عن تحقيق الرغبات، وعن الحصول على الحاجات، وأنهم أظمأ وأسغب منهم نفوساً لحرمانها من آمالها ومآربها، وأنهم من أجل ذلك مستعدون للإستباق وراء كل من يومىء لهم بهذه التي حرموا منها دون أن يمكنوا عقولهم من التفكير والنظر في صحة ما يدعون إليه وفي حال الداعين وفيما ينطوون عليه ويرمون إليه، بل وفيما يفعلونه جهاراً نهاراً، وفي

إمكان الحصول على هذا الذي يرجون ويؤملون وعدم إمكانه... بل إنهم يتراكضون وراءهم، وكأنهم آلات صماء فقدت كل تفكير ونظر. ولهذا فإنه يقل جداً أن يسمعوا نقداً أو إعتراضاً أو نصيحة أو توجيهاً، ويقل جداً أن يؤثر في إستسلامهم لهؤلاء الدعاة ما يصنعه الدعاة مما ينافي الحق أو ما يزعمونه حقاً ومما ينافي كل منطق وذوق.

فالحرمان، أو الشعور بالحرمان، من أعظم ما يسرع بالناس إلى أن يكونوا آلات متحركة بلا إرادة في أيدي المخادعين والمحتالين والواعدين بالآمال جزافاً، ومن أعظم ما يحدث الإنقلابات وما يولد النحل والمذاهب، وما يوجد لها الأنصار والمشايعين الذين يجودون بدمائهم أسخياء، من أجلها أو من أجل مبتدعيها.

لماذا نجد شعوباً وأمماً تضع، راضية مختارة، حياتها ومصيرها في يد زعيم واحد – كألمانيا مثلاً – يوجهها حيث شاء ويلقي بها حيث أراد من مواطن الموت أو مواطن الحياة، ونجد شعوباً وأمماً أخرى – كبريطانيا وأمريكا مثلاً – تأبى هذا النوع من القيادة والزعامة ومن الإستسلام والخضوع؟ هل الأمر في هذا راجع إلى إختلاف في طبيعة الفريقين، أم راجع إلى إختلاف في الظروف؟ الرأي أنه ليس أمراً طبيعياً. ولهذا فإن الألماني في أمريكا وسويسرا وغيرهما يأبى هذا الذي يأباه الإنجليزي في أمريكا وفي إنجلترا نفسها. وإنما المسألة أن الألماني محروم أو يشعر أنه محروم من أشياء يراها حقاً له، ويرى نفسه أهلالها، فهو محاول أبداً، ودائب أبداً في نيلها، وهو مسرع منقاد للزعيم الذي يرجيه ويرجوه لتحقيق هذه الحقوق.

أما الإنجليزي والأمريكي فليسا كذلك ولا يشعران هذا الشعور، فهما غير محتاجين للإستسلام والطاعة العمياء. ولو أن الظروف تغيرت وتبدلت فوقع الإنجليزي والأمريكي في ظروف الألماني وشعوره، ورجع الألماني إلى ظروف الأمريكي والإنجليزي وإلى شعورهما، لفعل أحدهما ما فعله الآخر ولتبدل الموقف تبدلاً كاملاً.

والميل إلى الحروب راجع أيضاً إلى هذه الظروف وإلى الشعور بها، لا إلى طبيعة لا تتحول. فلو أن الألمان الذين يميلون إلى إشعال الحروب نالوا ما ناله الآخرون من الملك والسلطان ومن الرخاء والرضا بما فيهم فيه لتحولوا عن هذا الميل الذي قيل إنه فيهم أصيل، ولو أن الآخرين حرموا حرمان الألمان وشعروا

شعورهم وملكوا القوة العسكرية والعلمية التي يملكها الألمان لمالوا إلى الحروب ميلهم... فنجاح هؤلاء الدعاة وهذه الجمعيات هو نجاح طبيعي على حساب ما تقضي به النفس الإنسانية، وإن كان نجاحاً يدعو إلى الأسف العميق عند العقلاء.

أعلن منذ سنة ونصف تقريباً في الصحف عن خطاب سيلقيه أحد الخطباء في إحدى الجمعيات الكبيرة المحترمة، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله)، فذهبت إلى تلك الجمعية في اليوم الموعود، فوجدت الحشود هائلة، فقام الخطيب يلقي خطابه فكانت خلاصته:

إن في أيدي المسلمين أمراً سهلاً قريباً يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجدوا به جميع ما فقدوا، وهو أمر لا يكلفهم شيئاً؛ هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالإجابة، فإنهم إذا دعوا الله وأيقنوا أنه مجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل... ثم ألقى على نفسه إعتراضاً مشهوداً مشهوراً وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله: يسألونه النصر والقوة والإستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير، ومع هذا كله فإنهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور... فأجاب عن هذا الإعتراض قائلاً: إنهم دعوا الله ولكنهم لم يوقنوا بالإجابة، ومن ثمة منعوا وحرموا!!! فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم! إنه حينئذ سيهبهم كل شيء، وسيهلك لهم أعداءهم وسيقدم لهم صك الإستقلال التام ملفوفاً بحرير مصنوع في السماء تحت إشراف الملائكة!! ثم أخذ في تلاوة الآيات والأحاديث التي زعمها مصدقة لظنه... هذا مجمل تلك المحاضرة التي ألقيت في تلك الجمعية المحترمة. وقد كان رئيس الجمعية – وهو إنسان ذكي خير – حاضراً فسمع المحاضرة كلها. وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الإعجاب، وحسبوا أن الخطيب قد ارتفع بهم إلى أحد الكنوز السماوية، فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا.

ولا ينبغي أن يحسب القارىء أن هذا الخطيب بدع بين الخطباء، ولا أن رأيه بدع بين الآراء، ولا أن تلك الجمعية بدعة بين الجمعيات، ولا أن أولئك الحاضرين المستمعين بدع في عديد الآخرين، بل ينبغي أن يعلم أن أكثر الناس اليوم – أو على الأشهر كلهم – يذهبون هذا المذهب ويعدون ضالاً مارقاً من لم

يذهب كما ذهبوا.

كتب أحد أئمة التاريخ والحديث الكبار في القرن الثامن الهجري في تاريخ له مشهور يقول: (وفي سنة ٥٤٣ حاصر الإفرنج - وهم في سبعين ألف مقاتل - ومعهم ملك الألمان دمشق، فخرج إليهم أهلها فاقتتلوا. وأخرج مصحف عثمان إلى صحن الجامع واجتمع الناس حوله يدعون الله، والنساء والأطفال مكشوفو الرؤوس يدعون ويتباكون -... إلى أن قال: - ومدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها المحلة التي أخبر الرسول عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن، وبها ينزل عيسى بن مريم.)...

هذا ما قاله في التاريخ، وله رحمه الله كتاب آخر عنوانه (الإجتهاد في طلب الجهاد) ذكر فيه أيضاً أن الكفار لن يدخلوا دمشق أبداً إلا أنه ذكر حجة أخرى غير هذه الحجة وهي أن الرسول عليه السلام قال: (وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده) قال: والقيصر هو من يملك الشام من ملوك النصارى. فهذا الشيخ - وهو محدث جليل - يرى أن الإسلام قد أعطى أهله ضماناً في صك مكتوب بأن النصارى لن يحتلوا مدينة دمشق! ولا نعرف ماذا يقول لو أنه عاش بعد أن كتب هذا فرأى الجيوش الفرنسية ثم الإنجليزية تدخل هذه المدينة الإسلامية الجميلة غازية فاتحة منتصرة؟ أتراه يستطيع أن يقول إن الإسلام أعطى هذا الضمان الجميل، أم تراه يدعي أن ما أورده هنا في كتابيه يصلح أن يكون برهاناً على وجود هذا الصك الإلهي المحمدي المزعوم؟ لا ريب في أن الذي جعل مثل هذا الشيخ الجليل الحافظ يهم هذا الوهم هو الغفلة عن سنن الله الصارمة التي لا محاباة فيها ولا فوضى ولا محسوبية.

قال أحد القواد العبقريين الذين عركتهم الحروب وعركوها: إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما. وهذه قولة قد نظنها كفراً أو فسوقاً أو جهلاً إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا، ولكنها في الواقع قولة عميقة منبئة عن حقيقة كبرى في حكمة الله. وإذا استمعنا إلى قول الله في كتابه "إن تنصروا الله ينصركم" إستطعنا أن ندرك ما في قول هذا القائد من حق وصدق. فإن هذه الآية قد جعلت نصر الله لنا إنما يأتي بعد نصرنا له، ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا، وإذن فالله لا ينصرنا إلا إذا نصرنا أنفسنا. ولا يمكن ان ننصر أنفسنا إلا إذا كنا أقوياء. وإذن فالله مع الناصر لنفسه، والناصر لنفسه هو

الأقوى. وإذن فالله مع أقواهما. وهذا هو القانون العادل الشامل، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل، ومن هلك بهما فلا ناصر له.

هذا ما كان يقوله المسلمون في العصور الخالية في سيادة النصارى وإنتصارهم عليهم. أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل هذا الوهم في خطر اليهود وفي ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومي لهم... فقد أكثروا من الإدعاء بأن اليهود لا خطر ذاتي لهم، وأنه لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الإسلامية لا على فلسطين ولا غيرها. ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك، ولن يكون لهم وطن خاص! ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه، وراحوا يتلون الآيات منزليها في غير مواضعها.

والآيات التي استدلوا بها والتي يمكن أن يستدلوا بها هي قوله في سورة البقرة": وضربت عليهم الذلة والمسكنة "ثم قوله من آل عمران: "ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة" ثم قوله من سورة المائدة: "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله" ثم قوله في الأعراف: "وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمماً، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك."

وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع في أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة. ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله؛ أما سنة الله فإنها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالأسباب. أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك، فإن هنالك شعوباً أقل منهم عديداً ومع قلتهم ملكوا بل واستعمروا شعوباً كبيرة. والمستقبل في هذا العصر ليس للعدد وإنما هو للعلم، فإن الحروب اليوم وغيرها، من الوسائل التي يستولي بها على الحياة، علمية.

وأما كتاب الله فإن هذه الآيات ليست صريحة في صدق هذه الدعوى: أما "ضربت عليهم الذلة" في الآيات كلها فإن الذلة عند أكثر المفسرين هي الجزية، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود، وفرضها عليهم في وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل

الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم... وإذا قدر بأن المراد بالذلة في الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم. وذلك لأن إخبار القرآن بأن اليهود أذلة في وقت نزوله لا يقتضي أن يبقوا أبد الآبدين كذلك. وما من أمة من الأمم إلا وزقد مرت بها عصور ذلة وضعف، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة. وفي الكتاب: "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة." وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه، ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيبقون أذلة أبداً.

وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهي الفقر. والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال. وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فالذي فعل الفقر

وذلك أن الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه، فإذا لم يسعده كان كالفقر المشقي.

وقيل إن المسكنة هي الجزية، وقيل الخراج... وكل هذه التفسيرات لا تنافي أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوماً ما خطراً مرهوباً.

أما قوله "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله" فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التي حاكوها بإحكام وإستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب، وأنهم هزموا في كل حروبهم التي شبوها مريدين القضاء على الإسلام. وهذا لا ينفي أن يكونوا خطراً في المستقبل.

وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فإنه لا ينافي الملك أيضاً. لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فإن في هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب. ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب.

وأما تقطيع الله لهم في الأرض أمماً فالمراد أن الله قد شتتهم في الأزمان القصية. وهذا أيضاً لا ينفي أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطراً على من ربطوا عقولهم بالأوهام، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام.

فالقرآن إذن لم يقدم إلينا صكاً فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكي الغني الماكر، بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر

ونستيقظ ونقف.

وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود. وقد يكون في هذا ما يعطي بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعاً عنها.

وإن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذي كتبنا في هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم، كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحي حتى قضى القضاء... وحينئذ لا يجدي الندم كما لم يجد فيما فرغ منه... وقد لاحظنا أن هذا الغرور - وهو خليق بأن يسمى غروراً - مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر، الذين يكاد يحاط بهم. فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود - جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء - لكانت الغلبة لهم، وإن فقدوا هم كل شيء من هذه الأمور التي من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شيء له.

ومما يجب الإلتفات إليه هنا أنه لا يحسن منها أن نحكم بأن القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك في عصر من العصور. فإننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون في ذلك شيء من توجيه الإتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه.

وقضية اليهود قضية يجب أن نهبها كل حساب وتقدير. ولعل بوادر خطرهم التي تجلت لنا في هذه الأيام لا تقل عن بوادر الخطر التي كان الغرب يهدد بها الشرق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أصبحت تلك البوادر حقائق مرة، لا نزال نعاني كروبها وسنبقى زمناً طويلاً نعانيها.

إن لمستقبل الصهيونية في فلسطين إحتمالين: أحدهما أن نفتح لها الأبواب هناك بعون الغرب، وأن تحتشد فيها وتتجمع وتتكون كيف شاءت - وهذا شر الإحتمالات. وثانيهما أن تقفل في وجهها الأبواب قفلاً محكماً أو بعض القفل. وهذا - كما لا يخفى - أفضل الإحتمالين.

أما الأول فلا شك أنه إذا أبيح للمال والذكاء والعلم اليهودي وللرؤوس اليهودية التي تجمعت فيها خلاصة الثقافات والمعارف والمطامع الغربية والعالمية - إذا أبيح لذلك كله أن يبسط سلطانه وأن يظهر مقدرته وكفايته في تلك

البلاد الضعيفة العاجزة عن المنافسة فإن النتيجة حينئذ تكون معروفة - أو يجب على الأقل أن تكون معروفة. ومن ارتاب فيها فلأمه الهبل... إن النتيجة حينئذ هي تدمير العرب في فلسطين تدميراً كاملاً، وسلبهم كل شيء مما في أيديهم وتحت أيديهم. ولو فرض في مثل هذه الحالة أنه بقي للعرب أجزاء من أراضيهم وأملاكهم، لم يستطع اليهود شراءها بوسيلة ما من وسائلهم الكثيرة، لم يمنع ذلك من أن يكون العرب في تلك الأراضي والأملاك المفروضة أجراء فقط، يعملون وينتجون لسادتهم الحقيقيين، ليس لهم من ملكهم وعملهم فيه سوى العناء المتواصل المبيد! لأن اليهودي يعرف كيف يسلبك ثمرة ما تملك! وكم من الناس الذين يملكون ولكنهم لا يملكون! وضحايا البنوك والمؤسسات الأجنبية يعرفون هذا معرفة مرة المذاق.

ولهذه النتيجة نتيجة أخرى، هي أشد هولاً وأشد إفزاعاً لمن يفكر فيها ويدريها تلك هي الإمتداد العسكري والإقتصادي والثقافي الذي سيكون أثراً محتوماً لإحتشاد هذه القوى اليهودية المخيفة في ساحة ضيقة مثل فلسطين... ومن المعلوم أن هذا الإمتداد لن يكون إلا في بلاد العرب. ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لا محالة من أن تتحدى الآلة العربية وتصطدم بها. ولا ندري كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق العظيمة. والقول بأن العزة للكاثر قول كان يصدق أحياناً لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف وبالحجارة والسهام والنبال وأمثال ذلك، ولكنه لا يجب أن يصدق في الزمان الذي يكون العلم فيه هو الفاصل والحكم والعدة.

أما الإحتمال الآخر الذي يرضينا معشر العرب، والذي نعمل له، والذي هو أقصى أمانينا - أعني إيصاد الأبواب كلها في سبيل كل يهودي يريد دخول فلسطين - فهذا الإحتمال - على أنه أفضل إحتمال - ليس في إستطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيوني الذي أنشب أنيابه حقيقة في جانب من جوانب هذا الوطن العربي. وذلك أن اليهود حينئذ - وهم أهل الذكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومي العجيب - سيلجأون إلى وسائل كثيرة هينة عليهم وعلى كل من هم مثلهم ثقافة وعلماً ونشاطاً ومالاً وشأناً دولياً ملحوظاً... من هذه الوسائل تنظيم عمليات التهريب براً وبحراً وجواً، والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وطنهم الذي لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى... ومنها محاولة تكثير مواليدهم

وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة – وهكذا حتى يصيروا عدداً جسيماً في هذي البلاد، وحينئذ ينطلقون في سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التي أرصدوا لها أضخم الذهنيات العالمية – يمدها ذلك الخيال اليهودي الذي ألهبته عبر التاريخ القاسية الطويلة، ومعارف هذا العصر الفذ، ثم تلك الشهية العتيدة التليدة التي شهر بالتمتع بها حفدة شيلوك وقارون إزاء المال والحياة، وإزاء المنافسة في تحصيلهما. وإذن فالخطر اليهودي قد صار حقيقة واقعة على كل الإحتمالات والحالات. فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا – وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائياً – لما كان في ذلك شيء من الضمان والأمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار. فكيف الخلاص إذن؟ كان من الواجب علينا أن نسأل – ولكن هذا أمر قد غاب عنا أجمعين – لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوروبا – مهبط النشاط الإنساني الرائع، ومحلى العبقرية البشرية – وأن يتحدوا كل صعب وذلول، ليتجمعوا في هذا الوطن الشرقي العربي الذي يكاد يكون من الناحية الزراعية والصناعية والعلمية فطرياً بدائياً، والذي لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التي يفرون منها؟ ليس من الحق أن يكونوا قد خدعوا فاعتقدوا بأن مجال العمل والنشاط والحياة في فلسطين أعظم منه في الأوطان التي تركوها، كما أنه من غير الممكن أن يكون البله الديني قد خالط رؤوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا، إنقياداً لعاطفة دينية، وطاعة لنص وجدوه في كتبهم المقدسة. كل هذا لا يمكن أن يكون. أجل، قد يوجد بين الجماهير المضللة من يكون هذا هدفه وهواه. ولكن الرؤوس التي نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال. فالأمر إذن غير ذلك، فما هو؟ لنفترض أن بريطانيا وأمريكا – أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم – طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة في ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا مثلاً ليصيروها لهم وطناً قومياً بقوة السلاح، فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض المعروض، وأن يقدموا على تجربته؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا، ولكن لماذا لا يفعلون؟ بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلداً عربياً، وهان عليهم تحدي أهله وتحدي جيرانهم وإخوانهم! !إنهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم يعلمون أن أهله سيدمرونهم في يوم من الأيام، أو يجلونهم على الأقل لا محالة، هذا من جهة، ولأنهم يعلمون من جهة أخرى أن هذه الشعوب ليست

هينة المنافسة، ولا سهلة القضم والبلع. أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهي عاجزة عن الأمرين معاً: عن تدمير اللصوص الواغلين وإجلائهم، وعن منافستهم تجارياً وصناعياً وزراعياً! فما أطيبهم إذن مغنماً، وما أسعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب! من السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً، فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها، لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهياً سائغاً! ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسد... ومعنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية، تقيها الفناء والعدوان، وبعضها ليست فيها هذه المناعة، فهي محتاجة إلى حماية خارجية وإلا ذهبت في الهالكين. واليهود يعلمون أننا فاقدون لهذه المناعة، ولهذا فإنهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا. لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلا متى وثقوا من ضعفك وهوانك.

وإذن فالسبيل الوحيد لنجاة فلسطين وغيرها من البلدان العربية، ولنجاتنا من جميع الغزاة والدخلاء أن نتعلم كيف نوجد فينا هذه المناعة الذاتية التي يكون في إستطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعاً. إننا إذا أصبحنا كذلك فسيمتنع الصهيونيون وغيرهم من الدخول علينا، في فلسطين وغيرها، حتى ولو عرضنا عليهم نحن ذلك عرضاً، وطلبناه منهم طلباً، ورجوناهم له رجاء! وسيقولون حينئذ حتى طلب منهم الدخول مثل ما قال أسلافهم وآباؤهم لنبيهم موسى – حينما قال لهم: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين...": – "...قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون – إلى قوله – قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فينا. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون."...

أما ما لم توجد فيها هذه المناعة الذاتية فسنظل عرضة لضروب الغزوات وصنوف الغازين، ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا إحتجاج ولا إجتماع، ولا شيء مما نصنعه من هذا القبيل.

نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق، مع أنهما هما الخصمان!! إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن في حولنا – لو تخلت هاتان الدولتان – أن نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة من غز

http://www.ithar.com

الصهيونية وأخطارها! فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية. أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك.

هذه حقائق يجب – على الأقل – أن نستذكرها دائماً، ويجب ألا تغيب عنا طرفة عين. وبناء على هذه الحقائق يجب أن يكون من أعظم ما نفعل، وما نتقي به الأخطار الحاضرة والمقبلة أن نعمل على الإتصاف بالمناعة الذاتية الداخلية التي ذكرناها آنفاً، وإلا فلا نجاة ولا حياة.

يحسن أن نستطرد هنا ونتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا في هذه القضية – قضية فلسطين والصهيونية: يخيل إليّ أن هذه الدولة لن تسمح بحال من الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربي إطلاقاً لليهود لأمرين إثنين: أحدهما خشيتها من اليهود في المستقبل.

أن الإنجليز يخشون دائماً القوي المتوثب، ويثبتون في سبيله العقبات، ويظلون يرقبونه ويتربصون به الدوائر ما بقي وبقوا. فإذا ما قام نزاع بين هذا القوي المتوثب وبين آخر ضعيف صاروا إلى جانب الضعيف، يؤ يدونه وينصرونه ويسندونه. وهم لا يتخلون عن هذه الخلة إلا إضطراراً أو لعلة – على أن يبقوا مراقبين لذلك القوي بحذر دائب! ولعل كل من كانوا في موقفهم ووضعهم يصنعون صنعهم. واليهود أقوياء متوثبون، ما في ذلك شك. فهل تسمح السياسة البريطانية التقليدية بأن يركزوا كل نشاطهم وقواهم المختلفة الهائلة في فلسطين؟

يبدو لكثيرين من الذين يلمون بدقائق سياسة هذه الدولة ودخائلها إن ذلك لن يكون.

أن الإنجليز يعلمون أنهم إذا فعلوا هذا ومكنوا الآلة اليهودية الضخمة من أن تبدع كل إبداعها وتركز جميع إنتاجها في هذه المملكة الصغيرة فستكون وبالاً جسيماً على الصناعة الإنجليزية في أسواق شرقية كثيرة، هذا أول، ثم وبالاً على السياسة والسيادة الإنجليزية ثانياً: فإن اليهود سينافسونهم منافسة قاصمة في الميدان الإقتصادي من كل وجوهه، بل وفي الميدان الثقافي الأدبي، ثم سينازعونهم في يوم من الأيام القريبة أو البعيدة السيادة والسلطان، وستكون هذه المنافسة وتلك المنازعة فنيتين قويتين بارعتين! فهل يجهل البريطانيون

شيئاً من هذا، أو هل يستطيعون رد هذا الخطر فلا يصنعون؟

نعم قد يقال إن الثروة الطبيعية قليلة تافهة في هذه البلاد بحيث لا يمكن أن توجد قوة صناعية إقتصادية، أو قوة حربية عسكرية تهدد بريطانيا العظمى ذات الثراء المخيف... ولكن هذا القول لن يستطيع أن يغير من هذه الحقيقة شيئاً. وذلك أن الجذور اليهودية ضاربة في كل أنحاء المعمورة، فهي تستمد غذاءها وقواها ووجودها من كل مكان، هذا من جهة، وجهة أخرى، تلك هي أن العلم والبراعة قد يستطيعان غلب العقبات كلها، وجهة ثالثة، هي أن العالم قائم أمره اليوم على التكتل والمحالفات وجمع القوى المفرقة لتصير قوة موحدة، وجهة رابعة، تلك هي أن أعظم أمة في العالم تمر بها أوقات تصبح فيها هدفاً لكل من يريد أن يرميها وأن يصيب منها مقتلاً.

أما الأمر الثاني فهو أن الإنجليزي بتربيته الأصيلة ينظر إلى المستقبل البعيد نظراً كله الحذر واليقظة والإنتباه. وإن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد مائة عام أو مئات الأعوام لا يقل عن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد يوم أو بضعة أيام... هذا وجه من وجوه عظمة هذا الشعب التاريخي الذي استطاع أن يستغل أكثر شعوب العالم، وأن يذلها ويسلبها كثيراً مما كان في أيديها بأهون الأسباب وأقربها، وأن يسخر أعظمها وأقواها في مصالحه وأغراضه الخاصة.

والإنجليز يعلمون أن العرب اليوم ضعفاء، لا يخشون بأسهم خشية تلزمهم بأن يدعوا بعض ما يريدون رهبة منهم، ونزولاً عند مشيئتهم. ولكنهم يعلمون من جهة أخرى أن الشعوب لا تبقى على حالة واحدة من القوة والضعف، والإرتفاع والهبوط، فيعلمون أن العرب قد يصبحون بعد عشرات الأعوام أو مئاتها قوة تخشى وترجى، ويحسب لها الحساب الكثير، ويقدرون أن هذا اليوم إذا جاء – ولا شك في أنه سيجيء – فسيذكرون من أساءوا إليهم ومن سلبوهم أحد أوطانهم العزيزة بالقوة والطغيان وقدموه هدية سخية لمستعمري أوروبا وأمريكا الصهيونيين، وسيأخذون بسنة الإنتقام وإسترداد الثأر. وقد ينسى كل شيء ولكن سلب وطن من الأوطان – سيظل ماثلاً قائماً أمام العين والوجدان – ليس من المستطاع نسيانه. وسيظل كل عربي حافظاً لهذا الثأر في أعماق نفسه، مرتقباً فرصة الإنقضاض والإنتقام الذي لا يعرف إعتدالاً ولا هوناً... إن الإنجليز يعلمون هذا كله، فهل من الممكن أن يتغافلوا عنه وأن يتناسوا حسابه؟

http://www.ithar.com

هذان أمران من الراجح المعقول أن يحولا بين السياسة البريطانية وبين إهداء فلسطين لليهودية العالمية – يضاف إليهما أمور أخرى مثل الخوف من أن يولي العرب – عند اليأس من الإنجليز – وجوههم صوب منافسيهم، ومثل الخشية بأن يكون نفوذ الصهيونية في فلسطين نفوذاً أمريكياً. وهذا ما لا يسيغه الإنجليز.

غير أنه من الممكن أن يقال إن الشعب البريطاني شعب واقعي، يؤمن بالحقائق ولا يستطيع تجاهلها أو الإغضاء عنها – هذه طبيعة فيه. وهو يرى أن من الحقائق الواقعة أن الشعب اليهودي قد صار قوة عالمية حقيقية، فهل يختار تحديها ومعاندتها وإغضابها جهاراً وعلناً؟ ألا يخشى أن تعبىء اليهودية العالمية قواها الهائلة كلها، وتنصب حبائلها أجمع للإيقاع بالإنجليز وتدمير سلطانهم المديد العتيد؟ أو ليس تماسك بريطانيا وعظمتها ونجاتها ونجاة إمبراطوريتها ممسوكاً بخيط دقيق طويل جداً – وهو عطف العالم – ولا سيما أمريكا – عليها حين محنتها وحين تطبق عليها الأرزاء وتأخذ الهزيمة بمخنقها، ووقوفه في صفها، سافكاً دم أبنائه، منفقاً لأمواله، معرضاً بلاده للأخطار والدمار... ولولا ذلك لهوت هذه الدولة في الحربين الماضيتين، ولأقام المنتصرون على أنقاضها ما يشاؤون من دول؟ أو ليس في إستطاعة اليهود أن يغيروا إتجاه أمريكا وغير أمريكا، وأن يصرفوا الرأي العالمي العام عن الإنجليز، وأن يتركوهم لأعدائهم الأقوياء الباطشين، يزيلونهم، وأن يكيدوا لهم كيداً قد يطيح بأعظم أمة ظفرت بأعظم مجد؟ فهل يغضي مثل هذا الشعب – وهو شيخ السياسة المعلم – عن كل هذه الحقائق؟ أو لا يمكن أن تجثو بريطانيا على ركبتيها من أجل هذا كله أمام مشيئة اليهود الغالبة؟؟ من الممكن أن يكون هذا كله أو جله صحيحاً عند النظرات الأولى، ولكن الإستقرار الطويل قد دل على أن الطبيعة الإنجليزية لا تسلم للقوة التي ترهبهم وتهددهم، وإنما ينشطون للعمل على إزالتها من الطريق، لأنهم يعرفون أنهم إذا سلموا لها لم يكن ذلك مزيلاً لخطرها، وإنما يضاعف له، وأنهم سيكونون بعد التسليم أضعف منهم قبله، وأن كل تسليم قد يعقبه تسليم آخر – وهكذا.

بيد أن هذه المسألة قد ينظر لها نظر آخر، فيقال: قد يرى الإنجليز أن من الصواب إحتضان اليهود وتقويتهم ليكونوا عوناً ورداءً لهم في المستقبل، وحلفاء

مخلصين أيام الشدائد. ومن المعروف أن البريطانيين – عادة – يصطنعون الحلفاء، ويوجدون الضعفاء ليكونوا من ورائهم – بل من أمامهم – يوم تدلهم الخطوب... ولكن يظهر أن هذا الأمل ضعيف، وأن هذه الأمنية بعيدة التحقيق، لأن اليهودي طموح حقود متوثب أناني شديد التعصب لعنصره وقوميته، لا يرعى الصداقة ولا الإحسان القديم حين القدرة، ولهذا أسباب تاريخية ونفسية معروفة.

ومن الممكن أن يقال أيضاً: لعل السياسة البريطانية البعيدة الغور ترى في إقامة دولة صهيونية في قلب البلاد العربية ضماناً لها ولسلطانها من أن يجرفها ويجرفه العرب حينما يصيرون قوة تضر وتنفع، لأن وجود اليهود بينهم يضعف دائماً من شأنهم، ويحد من سلطانهم. غير أن هذا لا يصح لأن العرب يوم يكونون أقوياء، ويوم يعرفون كيف يكونون كذلك سوف يطيحون باليهود، وسوف يعصفون بهم كما يعصف الإعصار المجتاح بما يقف في طريقه من الأشياء الصغيرة.

من أجل ما ذكر – ومن أجل غيره أيضاً – نرجح أن السياسة الإنجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودي في فلسطين موقف المانع المعارض، على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها. ولكن يجب على كل إنسان منا ألا يثق بالإنجليز ولا بغيرهم، وألا يرجو منهم خيراً، فما يصنعون إلا ما يظنونه مبقياً على إمبراطوريتهم، فما هم إلا حراسها، ويجب ألا نلومهم على ذلك. وهم لن يقدموا لنا خيراً لأنهم يحبوننا، أو لأنهم يحبون الخير للآخرين، أو يحبون الخير لذاته، فما هذا من طبيعة البشر! ويجب ألا نأسى وألا نغضب من هذه الطبيعة القاسية. والدنيا كلها مسوقة بهذا الناموس الصارم – ناموس تنازع المصالح. فلنوطن أنفسنا على تقبل هذه الحقيقة وعلى الرضا بها، وعلى الإنتفاع بنتائجها؛ ثم لنعلم أنه لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا – تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة إليه!!

ومن لم ترضه هذه الطبيعة البشرية فليحاول أن يكون مخلوقاً آخر إن استطاع، أو ليحاول الخروج من هذا السيار، ليصعد إلى سيار آخر لعله يجد فيه طبائع أفضل من هذه؟

والذي نريد أن نقوله هنا هو أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من

http://www.ithar.com

خلقه. وقد وضع نواميس وسنناً وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل. فمن وفق لإستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين، وسار معها بلا إصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغى، ومن عائد هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج منها فقد هلك ولا محالة، ولن ينفعه أن يقول إنه مسلم أو أنه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه، كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدي من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة، زاعماً أنه مسلم مؤمن، وزاعماً أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية.

* * *

اخرج إلى السماء في ليلة صافية، ثم انظر إلى تلك المخلوقات المتلألئة التي تملأ الفضاء والتي تواجهك أينما اتجهت والتي تكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث، والتي تكاد تزخرف بساطاً من حبات اللؤلؤ ذات الإشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية؛ ثم استسلم إلى عقلك وعلمك وخيالك قائلاً: كم يمكن أن يكون قد مر بهذه المخلوقات الجميلة من الأحقاب وهي محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا إضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم؛ ثم سل ما الذي يمسكها هكذا كل هذه الدهور – تجب بأن الذي أمسكها ويمسكها هو النظام الإلهي المفروض عليها، ثم سل ثانياً قائلاً: أرأيت لو أن الجن والإنس والملائكة وكل الخلائق – أولين وآخرين – وقفوا في صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه، أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء.

ثم فكر في هذه الشمس التي لم تزل منذ آلاف الدهور تبعث إلى هذه الأرض وإلى أهلها الحياة والضوء والحرارة والقوة، ثابتة على مواعيد مضبوطة في ذهابها وإيابها وفي فلك مضبوط وحركة مضبوطة ونظام مضبوط، لا تبالي بما يريده الناس منها ولا بما لا يريدونه، لا برضاهم ولا بغضبهم، لا حين يحترقون من حرارتها، ولا حين يجمدون من إحتجابها وغيابها، لا يوم يريدونها طالعة ولا يوم يريدونها غائبة، لا ترحم قوماً اشتدت عليهم حتى لفحت أجسامهم وسودت أبشارهم، ولا قوماً هانت عليهم أو هانوا هم عليها حتى قضوا حياتهم كلها مقرورين بين الثلوج وتحت عقاب الزمهرير... ثم سل ما الذي ألزمها هذه الحالة

الثابتة الرتيبة تجب بأنها سنة الخلاق العليم العظيم.

ثم ارجع بفكرك إلى هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه وانظر كيف حكم كل شيء فيه بقوانين صارمة لا يستطيع شيء أن يغلبها أو يبدلها أو يحولها، وإنما يستطيع أن يعلم شيئاً منها فيعمل على الإنتفاع والإستخدام خاضعاً هولها محتذياً مقتدياً... ثم صح من أعماق نفسك وصميم إعتقادك قائلاً: اللهم ضع في أعمالي وأفكاري وآرائي النظام الذي وضعته في سماواتك ونجومك وشموسك وأرضك وكل خلائقك المطبوعة – اللهم علمني الدقة والحكمة حين أفكر وأعمل، كما علمت ذرات جسمي وذرات أرضك وذرات شمسك حين تتجمع وتتفرق وحين تحيا وتموت.

* * *

من أروع الآيات القرآنية المنبئة عن هذا النظام قوله تعالى من سورة الحجر: "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون." وكلمى موزون هنا تفوق كل ما يمكن أن يقوله العلم والفلسفة في هذا الموضوع. ثم قال من هذه السورة: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم." وقال من سورة القمر: "إنا كل شيء خلقناه بقدر." وفي سورة الطلاق: "قد جعل الله لكل شيء قدراً." والقدر هو النظام كله، صيغ بأجمل وأبلغ وأقل لفظ، وقدم بأبهى وأروع صورة.

ويجب أن يعلم بأن الخلاف الذي قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو في أمر واحد تحته أمور كثيرة، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة إلى النظام؛ النظام في كل شيء: في الإتصال بالخالق والإتصال بالمخلوق والإتصال بكل شيء وإلى الإيمان بهذا النظام... فسنن الله وأوامره عامة شاملة، وعدله وقضاؤه وأحكامه عامة شاملة. فالناس كلهم بل الخلائق كلها في حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها، ولا خرافات: فلا أموات ولا أشباح ولا أرواح تدعى أو ترجى أو تخشى أو تتحكم وتتصرف في الناس وفي الطبيعة، ولا أسرار ولا ألغاز ولا طلاسم، فلا بركة عند شيخ أو عند قبر أو عند أثر، ولا تمائم تعلق ولا بخور يحرق، ولا طيور لا سوانح ولا بوارح يتشاءم أو يتيامن بها ومنها، ولا جبر، بل كل مختار مريد، ولا احتجاج بالقضاء

http://www.ithar.com

والقدر، ولا مجازفة في الثواب أو في العقاب. بل الجزاء كله بالحساب وبالموازين والقسط ولا أمر بالتخلي عن الدنيا ولا بالفقر أو بالزهد ولا بسائر ما تدعو إليه الصوفية القائلة، ولا إنتظار للخوارق والمعجزات التي تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية... أما أعداء الأنبياء والمصلحين فقد آمنوا بكل هذه الترهات وبسواها من الغوايات، فكان الخلاف بين الفريقين عظيماً.

وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصاً قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر: "فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً." نفى أن تبدل السنة فأمكن أن يقول قائل إنها وإن كانت لا تبدل – والتبديل هو التغيير – إلا أنها تحول عن طريقها – والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة – فنفى هذه أيضاً؛ فهي لا تغير بل تجري على وتيرة واحدة أزلاً وأبداً، ولا تصرف عن سبيلها بل تمضي فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا. وهذا هو العدل المطلق الذي لا يقدر على تحقيقه إلا من أوتي الكمال المطلق في جميع صفاته. أما من لم يكملوا هذا الكمال فإنهم يبلغون من هذا العدل بمقدار ما بلغوا من هذا الكمال. ومن هنا جاء التفاوت والإختلاف بين الناس في قوانينهم وفي تنفيذها وفي قضائهم وفي التسوية فيه وفي عدلهم ثم في المحافظة عليه. ولا شك أن التسوية والعدل في القوانين وفي التنفيذ وفي القضاء فضيلة يتصف بها المتصفون فيمدحون على كل لسان، ويحبون في كل مكان وزمان، وأن التفريق في ذلك والمحاباة فيه رذيلة يمقتها الناس قاطبة.

وأعدل الناس هو الذي ينظر في أحكامه من ناحية مكانها من العدل فقط، فيطبقها كذلك ويمضيها، ولا ينظر إلى من تمضي عليهم حين إمضائها وتطبيقها – أي ينظر إلى القضية من حيث كونها عدلاً وكونها جوراً، ولا ينظر إلى من يتناوله هذا الحكم أكان فلاناً أم فلاناً، أكان من أهل هذا الدين أم من أهل ذاك. ومن نظر هذا النظر كان ظالماً. والله أولى من ينزه عن شوائب الجور ومظاهره، فكيف بصرائحه وقبائحه.

ومن المواقف العلمية الخالدة في بيان سنن الله وبيان أنها ثابتة لا تتغير من أجل الأرض وأهلها، موقف النبي عليه السلام يوم أن كسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه ابنه إبراهيم فقال الناس إنما كسفت الشمس لموت إبراهيم فقام فيهم خطيباً وقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد

ولا لحياته.) وهذا رد صريح قوي للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب أهل الأرض من خير وشر وبما يحدث لهم وبما يحدثون هم... بل هذه الموجودات لازمة سننها بلا تغيير أو تبديل وإن تغير الناس وتبدلوا وإن صلحوا أو فسدوا وإن عاشوا أو ماتوا.

وقد أذكرني هذا الموقف النبوي الخالد بصديق تقي يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التي تحدث في بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم – قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الإسلامية. فقلت له: هذا يشبه الزعم أن جدب بعض البلاد وشدة الحر والبرد في جهات أخرى وغير ذلك من الفيضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض.

ومن اللفتات اللطيفة الصريحة إلى هذه النواميس قصة تلقيح النخل؛ وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال: (ما أظن ذلك يغني شيئاً) فتركوا التلقيح ففسد التمر فأخبر فأمرهم بالرجوع إلى ما كانوا يفعلون. ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقاً ولئلا يوجه إليه الخطأ في مسألة كهذه.

أما الآيات التي فيها أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وما في معناها فليس المراد أنه تعالى يعطي جزافاً وبلا إستحقاق ولا عدل ولا تسوية. فإن الله قد أثبت الحساب في جملة الكتاب مثل قوله "جزاء من ربك عطاء حساباً." والآيات في هذا لا تحصى وإنما المراد أن الله يعطي بدون أن يحاسبه محاسب أعلى منه وهو في معنى قوله "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون –" أو أن المرء قد يعمل عملاً له نتيجة هي من وراء حسابه، فإذا أصاب هذه النتيجة التي هي نتيجة عمله كانت بالنسبة لتفكيره بغير حساب ولكنها بالنسبة إلى جزاء الله وإلى موازينه وقوانينه محكومة بأدق حساب – أو غير ذلك من المعاني الصحيحة التي لا تنافي قضية النظام والعدل ورفع الفوضى والتخبط في العطاء والمنع. ومما يصح أن تفسر به هذه الكلمة أن نتائج كثيرة لأعمال أناس آخرين قد تنفع المرء من غير أن يحتسبها أو يعلمها أو تخطر على باله، كأن يرث إنساناً. ولكن لا ريب أن ما يقع من ذلك لا يعدو أن يكون نتيجة طبيعية أو عادية لأعمال معينة – أو تفسر به يصنعه الله على مقتضى سننه الثابتة العامة التي لا تفرق بين أناس وأناس.

http://www.ithar.com

ولن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره."

والفوضى في الجزاء والمكافأة أعظم مخذل لقوى الإنسان وأعظم واقف في سبيله... إننا نلاحظ عجزاً عاماً في قوى الطوائف كلها عندنا وفي أخلاقها، ونجد كلالاً أيضاً قد هبط بكل إنسان عن مستوى من هو مثله من الأمم؛ فزعماؤنا وقوادنا وعلماؤنا وطلبتنا وموظفونا وكل صاحب عمل، عاجزون عن بلوغ الكمال النسبي الذي بلغه أمثالهم من الشعوب الأخرى. وقد نعجب إذا رأينا العالم لدينا يتخرج من المعهد الذي درس فيه ثم يقف عند الحد الأدنى الذي انتهى إليه حينما كان طالباً، يدأب في سبيل نيل الشهادة لا يتجاوزه في دراسة ولا تفكير، بل ثم يأخذ في النقصان والنسيان حتى يصير إنساناً عادياً لا يمتاز عن العاديين إلا بالشهادة التي يحملها إن كان يصح أن يسمي هذا إمتيازاً – وكذلك سائر رجال الأمة.

وليس سبب هذا أن الناس عندنا لا يريدون الخير لأنفسهم، بل لهذا أسباب أخرى من أعظمها أنهم يرون ويعلمون أن الجزاء والمكافأة ليست على قدر الكفاية، بل الكفاية في الغالب لا شأن لها في هذا، وإنما الأمر كله يرجع إلى الوساطات والشفاعات والقرابات وإلى أمور أخرى هي أقل من ذلك... فمن رزق الشفيع القوي المرهوب أو المحبوب فذلك هو المجازى بأعلى المناصب وأقواها وأضخمها وأوفرها رزقاً، وإن كان من ناحيته العلمية والذاتية والخلقية لا يستحق إلا الحرمان والطرد، ومن حرم ذلك الشفيع فهو المنسي المجهول القصي ولم ينفعه علم ولا خلق ولا كفاية ولا عبقرية، بل قد تكون هذه المعاني من أسباب حرمانه وتأخيره وإقصائه لأن النقص يرهب الكمال... ففيم الجهاد والدأب إذن؟ وفيم إتعاب النفس وإرهاقها بدون ثمن؟ فالزعيم والسياسي والقائد والعالم والطالب والموظف وكل أحد عندنا أنهم لا ينالون من الجاه والسلطان والثراء المحبوب بقدر ما قدموا من نفع وخير ونبوغ وعمل مفيد، بل يعرفون أن ما ينالونه من ذلك إنما هو مقدور بأشياء أخرى، فيتوجهون بكل عنايتهم وتفكيرهم إليها. وكل إنسان إنما يسير في السبيل التي يظن أنها توصله إلى غايته.

أما الأمم الأخرى فإنهم يعلمون ويرون – لأن مجتمعهم قد أصبح صالحاً –

أن الإنسان لا يرتفع ولا يبلغ من آماله إلا بقدر أعماله: فقيمته الذاتية هي التي بها يعلو ويهبط، فلا يستطيع إلا أن يعمل، لأنه لا يستطيع إلا أن يحب نفسه ويحب لها الخير. والذين يعتقدون أن الجزاء من الله في الدنيا وفي الآخرة ليس مرتباً على العمل وليست النتيجة مرتبطة بالوسيلة إرتباطاً صحيحاً لا محالة من أن يصيروا هذا المصير الشنيع في عملهم وتفكيرهم وإتجاههم. فالذين يعتقدون أن الأفراد والجماعات لا يبلغون من العز والسيادة والقوة ومن الجاه والمال والمنزلة في القلوب ومن الشهرة والسمعة ومن العلم والصحة والسرور والسعادة بقدر ما بذلوا من إجتهاد وإخلاص ومثابرة وذكاء وحسن تصريف لن يقبلوا على الحياة وعلى العمل إقبالاً صحيحاً ولن يأتوا بعمل جسيم عظيم. فالذين يرون أن القضاء والقدر، أو أن الحظ، أو أن الشفاعة والوساطة، أو أن الإرادة المطلقة، أو أن رضا الله وغضبه وحبه وبغضه: أن شيئاً من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة – أي يرون أن هذه الأشياء تدخل في مصير الإنسان وتحول بينه وبين النتيجة التي يجب أن يوصله إليها عمله – هم قوم لن يجدوا في أنفسهم ما يعينهم على الإندفاع إلى الأعمال الصالحة، وعلى الإنطلاق في سبيل الحياة القوية... فالمجتمع الذي يرتجي له التبريز في ميدان الأعمال هو الذي يؤمن بالعدالة المطلقة، في السماء وفي الأرض، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التي لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالإنتقام للحقد، ولا بالإغداق للحب.

مما نشكو منه شكوى عامة مرة أننا نعامل من يسمون أجانب فتسرنا معاملتهم إذ يصدقون القول ويحافظون على الوعد ويحسنون اللقاء ويخلصون لما يوكل إليهم ولما يؤدون من عمل... ثم نعامل من يدعون مسلمين فنساء من معاملتهم، إذ نجدهم على مخالفة لهذه الأخلاق كلها، فما وجه هذا الإختلاف؟ وجهه أن الأجانب يؤمنون بالسنن العامة العادلة وبالسبب والمسبب إيماناً صحيحاً: فيؤمنون بأن هذي المعاملة تصير بهم إلى النجاح لا محالة، وأن الخروج عنها يؤول بهم إلى الفشل المحقق لإرتباط المسببات بأسبابها إرتباطاً طبيعياً... أما المسلمون فلا يؤمنون بهذا الإرتباط، بل يرون أن طريق الفوز والهزيمة هو الفوضى. فقد يكون المرء شر الناس في معاملته وعمله ثم يسير النجاح في ركابه حيث سار، كما قد يكون أحسن خلق الله في ذلك ثم يطبق عليه

http://www.ithar.com

الفشل، إذ عندهم أن أسباب السقوط والنهوض ليست من عمل الإنسان ولا في معاملته، وإنما ترجع إلى أشياء عليا لا حيلة فيها كالقضاء والقدر والإرادة والحظ والقسمة... فلا يرون حينئذ ما يلزمهم بأن يروضوا أخلاقهم ونفوسهم على ما يوجب عليهم التضحية بميولهم ومصالحهم الصغيرة العاجلة التافهة، فيسيرون طوع تلك الطباع البدائية المتوحشة التي تهيمن على أنفسهم... والسبيل للإصلاح هو الإيمان بالأسباب والمسببات وبالسنن العادلة الشاملة، وبأن للأخلاق قوانين صارمة كقوانين المادة.

فالحامل للفريقين على هذي الأخلاق المتباينة هو حب الذات، لكن هؤلاء رأوا أن الطريق لخدمة الذات هو الأخلاق الفضلى، والآخرون لم يروا هذا الرأي. فالإختلاف في هذا يرجع إلى الإختلاف في الرأي والفهم. فالغاية متحدة والوسيلة مختلفة!

ونثبت هنا شيئاً يعده الناس مخزاة خلقية ونعده نحن مخزاة اعتقادية فكرية، لأن إثباته هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذي نرمي إليه.

ذلك أننا تقدمنا أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريباً إلى وزارة التموين نطلب إليها أن تبيع لنا ورقاً لطبع هذا الكتاب. وقد ابتدأ هذا الطلب خط سيره هكذا: مر بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى إختصاص بهذه المسألة – مسألة الورق – ثم بعد أن انتهى إلى آخر مطاف يمكن أن ينتهي إليه كر راجعاً إلى حيث ابتدأ أولاً، متخذاً الطريق نفسه، نازلاً من أعلى إلى أسفل أو صاعداً من أسفل إلى أعلى، سالكاً خطاً وهمياً دائرياً... وقد ضل في هذا الخط وعجز عن أن يجد له نهاية ينتهي عندها أو بداية يصدر عنها... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلاً بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقية، وأعيا رجال وزارة التموين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه – إما رفضاً وإما إجابة.[1] وقد شبهت الوزارة ورجالها – وهم يدورون ويتحركون في المسألة – بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقاً مطبوعاً عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقاً مخرقاً

(١) ويشرح الغرض الذي نرمي إليه أن نقول: إن هذه المسألة التي عيّ حلها على معالي طه السباعي باشا المسلم، قد استطاع أن يحلها حلاً جزئياً معالي سابا حبشي باشا المسيحي حين آلت إليه الوزارة.

ممزقاً، أو مطموساً بالسواد الذي لا يستبان له وجه ولا غرض.

ووجه الشبه أن كلاً من الوزارة وهذه الآلة للطباعة تتحرك ولكنها لا تفعل شيئاً مفيداً، ثم لا تنتهي عند هذا، بل تذهب تضيع الجهود والوقود والأوقات والأوراق والأشياء الأخرى. والشيء الذي يهمنا في هذا الحادث أو هذي المأساة هو أن نتلمس الأسباب والدوافع الحقيقية التي قضت على القوم بأن يصيروا في أمورهم على هذا النحو من الإنحلال والفوضى... وقبل ذكر هذي الأسباب نذكر أن القوم لو كانوا يسيرون على أمر مفهوم معقول لكان أمرهم من هذه المسألة إبتداء أحد الأمرين: إما أن يكون لطلبنا هذا وجه مشروع فينجزوه بلا تأخير، وإما ألا يكون له وجه، فيعرفون ذلك ويعرفوننا إياه، فيريحوننا ويريحون أنفسهم... أجل قد يظن القارىء أن العقدة في المسألة أن الورق كان غير موجود لدى الوزارة، ولكن الموظفين كلهم أفهمونا أنه موجود وأن في الإحتياطي ما يكفي إذ ما نطلبه قليل جداً... وإذن فما هي الأسباب الحقيقية التي ألزمت القوم بأن يكونوا هذي النماذج البشرية المخجلة؟ الناس – عادة – يكتفون في مثل هذا أن يقولوا: إنه الإنحلال الخلقي. ويحسبون أنهم بهذا قد أصابوا لباب الموضوع. ولا ريب أن مثل هذا الجواب لا يشفي ولا يكفي من لا يغنيهم الإلمام بظواهر الأشياء.

ومن المعلوم أن الذي يدفع الإنسان إلى العمل وإلى الترك في هذه الحياة هو حب ذاته وحرصه على مصلحتها الخاصة الخالصة. ومن غير الممكن أن يكون الإنسان عدواً لنفسه، مريداً ضررها بالمعنى المفهوم المتبادر. بل إن أشد الناس إجراماً وفساداً وإضراراً بنفسه وإساءة لها – حتى المنتحر نفسه – إنما يدفعه إلى ذلك حب ذاته، كما أن أشد الناس ورعاً وصلاحاً وفضيلة إنما يدفعه ذلك الدافع ذاته. فالدافع في الحالات كلها هو شيء واحد، حتى إن أشد الناس أثرة هو مثل أشدهم إيثاراً من حيث إن كلاً منهما إنما يفعل ما يفعل من أجل حبه ذاته ونفسه. فحب النفس ومصلحتها هو الأمر الذي تقوم عليه جميع الأفعال والحركات.

وإذن فرجال وزارة التموين حينما فعلوا بمسألتنا هذي الأفاعيل وآذونا كل هذا الأذى ليس معنى هذا أنهم لا يحبون أنفسهم ولا يحبون أن يقال: إنهم قوم منتجون مريحون فضلاء عاملون صادقون – أو لا يحبون لأنفسهم ما قد يترتب

http://www.ithar.com

على هذا من المثوية العاجلة الدنيوية – وليس معناه أيضاً أنهم لا يبالون أن يتهموا وأن يذموا وأن يقال إنهم مقصرون خاملون كاذبون مراوغون مضيعون على الناس مصالحهم وأوقاتهم، متقاضون من الدولة أجوراً بدون أن يصنعوا شيئاً... بل إنهم في هذه المشاعر وهذي المعاني لا يقلون عن أولئك الآخرين المدعوين بالأجانب، الذين يؤدون أعمالهم على أحسن الوجوه وأسرعها وأكملها وأفضلها... فالعقدة ليست هنا، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء ليس في هذا. ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين هو أن قومنا – ومنهم وزارة التموين – بما فيها من رجال وأعمال – لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازماً طبيعياً، وأن بين الوسيلة والنتيجة إرتباطاً حقيقياً، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكاً أزلياً أبدياً... فلا يؤمنون بأن عمل السوء سيؤدي لا محالة إلى نتيجة ضارة، وأن عمل الخير سوف يؤدي بلا ريب إلى نتيجة سارة، وأن المراوغة في مثل هذي المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم في النهاية على الفضيحة والخزي والعار والسمعة القاصمة، وأن ذلك كله سيؤدي بهم – بدوره – إلى الخيبة وإلى العقاب الإجتماعي الصارم – وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال. إنهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهذي الأعمال، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب، لأنهم ليسوا فقراء من حب النفس والذات، ولكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر. ولكن لماذا لا يؤمنون هذا الإيمان؟ إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة هي المهيمنة على كل شيء، على الوسائل والنتائج وعلى الأسباب والمسببات هيمنة عمياء باطشة، فهي لا تسير سيراً حراً طبيعياً في طريقها ولا تدع تلازمها وتماسكها أمراً مضموناً محققاً. ويرون أن الإيمان بذلك هو من الإيمان بكمال الله وبحرية تصرفه. وقديحتجون لهذا بأمثال قوله تعالى" كل يوم هو في شأن. "وكم من قولة حق أريد بها أشنع ضروب الباطل.

وإذن فقد تكون الوسيلة جميلة وشريفة جداً ثم تكون النتيجة عكس ذلك، كما قد تكون الوسيلة قبيحة وآثمة وغير شريفة ثم تجيء نتيجتها باهرة رائعة – وهكذا القول في الأسباب والمسببات وفي كل شيء. وهكذا علموا، وهكذا آمنوا، وهكذا فسدت أعمالهم وأخلاقهم، وهكذا صنعت لنا وزارة التموين... أما أولئك الذين يحسنون القيام بأعمالهم ويهبونها كل إخلاصهم وإهتمامهم وصدقهم

ووجودهم، فقد آمنوا بهذا الذي كفر به هؤلاء؛ آمنوا بأن هنالك إرتباطاً وثيقاً بين العمل ونتيجته وبين البداية والنهاية، فأحسنوا في العمل لأنهم يريدون حسن النتيجة، وأحسنوا في البداية لأنهم ينتظرون النهاية ولا فارق بين هؤلاء وهؤلاء إلا هذا؛ لا فارق بين هؤلاء الأجانب الذين نعاملهم فتروعنا معاملتهم بنظامها وصدقها ودقتها، فنصبح أسرى معاملتهم وأسرى متاجرهم وبنوكهم وشركاتهم – وبين هؤلاء المواطنين أو المسلمين – وعلى رأسهم موظفو وزارة التموين – الذين نلقى من معاملتهم كلما عاملناهم مثل هذا الذي لقينا من هؤلاء الموظفين حينما تقدمنا إليهم بهذا الطلب المشروع لنصدر هذا الكتاب الذي يعالج هذه القضية العامة الكبرى – والذين لا نزال نلقى من معاملتهم كل ضر وشر وكذل ومراوغة وغش فنولي منهم مذعورين، نتمنى لو أن الله منحنا سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم إذا كان في الإمكان إصلاحهم.

لماذا نعامل بعض التجار فيحاول – لو استطاع – أن يبيع لنا شر السلع بأغلى الأثمان كأنه لا ينتظر معاملة أخرى غير هذي، وإنما هي صفقة الدهر أو سرقة الدهر، ثم نعامل تجاراً آخرين فنلفيهم يسيرون في تجارتهم ومعاملتهم على لون واحد صادق حتى لو أنهم استطاعوا أن يبيعوا لك السلعة الرديئة بثمن السلعة الجيدة ورضيت بذلك لما رضوا هم به، كأنهم إنما يريدون أن يكسبوا قلبك لا أن يكسبوا هذي الصفقة الواحدة مهما تعاظم مكسبها؟ لماذا نجد هذا الإختلاف وما سببه؟ إن هذا الإختلاف وسببه يرجع إلى أن الأولين الذين هم لصوص التجار لا يؤمنون بالإرتباط الذي ذكرنا، ولا يؤمنون بأن المستقبل – في النجاح والسقوط، والإرتفاع والهبوط – ما هو إلا وليد الحاضر وزرعه وغرسه وغايته، لا تخلف ولا إضطراب، لأن المستقبل – على رأيهم – بيد الله يصرفه ويضعه ويصوغه كما يشاء لا كما يجب ويحسن، لأنهم لا يعرفون لله حكمة ولا عدلاً وإنما يعرفون له مشيئة وقهراً!! وإذن فالواجب عليهم أن ينتهزوا الفرص العاجلة وأن يعتقدوا أن ما أمكن أخذه فمن الجنون تركه! !وحينئذ فما الذي يضطرهم إلى أن يفيتوا على أنفسهم المكاسب الناجزة، وما الذي يضطرهم إلى أن يروضوا أخلاقهم وأعمالهم على الكمال والصدق والإخلاص – مخالفين بذلك غرائزهم البدائية الهمجية!!

http://www.ithar.com

أما أولئك الآخرون فقد آمنوا بهذا الإرتباط أوثق إيمان، فأمعنوا في سبيل النجاح وأصبحوا الأمثال المضروبة للأقوام الناجحين.

إننا نرى الأطفال وأشباههم من حواشي الناس وأوضارهم ونفاياتهم يلقون بالكذب وبكل سوء وقبيح أينما حلوا، لا يحسبون لشيء من ذلك حساباً ولا يرون أن شيئاً منه منكر مذموم... ثم نرى الحكماء وذوي الشأن والخطر يتقون كل هذا ما استطاعوا له إتقاء وإن فعلوا شيئاً منه فعلى حذر شديد وبمقدار؟ فلماذا هذا؟

إن الأطفال وحواشي الناس وأمثالهم – ممن لا يعرفون التبعات وممن لا يحملونها – إنما يقدمون على هذي القبائح بهذه الجرأة التي لا تعترف بالمبالاة لأنهم يجهلون أن لما يقولون ويفعلون عواقب لا بد أن تصيبهم وأن تصيب سمعتهم ومكانتهم، وأن ترميهم في النهاية بالفشل الإجتماعي وبكل الآفات الإجتماعية التي يرهبها الإنسان بطبعه... ولو أنهم علموا ذلك علماً صحيحاً وآمنوا به لكان فيه ما يحول بينهم وبين هذه الشناعات. ولهذا فإن الأطفال، كلما تقدمت بهم السن وعرفوا من سنن الإجتماع وقوانين الحياة، يمسكون – على قدر ذلك – بأعنة غرائزهم ويحكمون القبض على لجم شهواتهم وميولهم الطفلية الأولية، لأنهم ينتبهون إلى عواقب هذه الأمور ويدرون منها ما كانوا يجهلون... فالعلم بالعاقبة هو أعظم ضمان للأخلاق وأقوى حارس لها.

أما الحكماء وأضرابهم فإنهم يحذرون الكذب وكل ما يسوء لأنهم يعرفون من سنن الإجتماع ونواميس الوجود وطبائع النفس البشرية، ومن تلازم الحوادث وإرتباط المسببات بالأسباب ما لا يعرفه الآخرون، فيتقون كل ما قد يودي بسمعتهم ومكانتهم، وكل ما قد يصيبهم بما يكرهون.

وإذن فلن تتخلى وزارة التموين عن خلائقها هذه وعن أمثال هذه المعاملة التي أضاعت علينا الوقت الكثير والجهد الكثير – وعليها أيضاً – وجعلتنا نندب الإنسانية ونشعر بالعار والإشمئزاز كلما رأينا واحداً من رجالها أو كلما دخلناها أو كلما رأينا من يشبهونهم. أجل، لن تتخلى هذي الوزارة عن شيء من هذا، ولن تشعر أنه من الواجب أو من الحسن لها التخلي عنه إلا إذا استطاعت أن ترتفع عن تراب غرائز الطفولة وحواشي الناس وهملهم، هؤلاء الذين لا يعرفون عاقبة ولا يرهبون نتيجة، بل ولا يفكرون فيهما – إلى سماء الرجولة

الكاملة الناضجة وإلى علياء العقل المفكر الذي يؤمن بالعواقب والنتائج وبالتماسك الوثيق بين أحداث الوجود ودنيا الأحداث. ووظيفتنا نحن في هذا الكتاب أن نعرفهم ذلك وأن نقدم لهم هم وسواهم مادة الإيمان به.

وليعلم أننا لا نريد هنا أن نطعن في أحد معين، وإنما أردنا علاج مرض عام وتعليل ظاهرة إجتماعية عامة مخيفة. فلا يجب أن يغضب مما ذكرنا أحد. وما شكوناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع طوائف الأمة.

http://www.ithar.com

كيف فهما وكيف يجب أن يفهما وكيف قررا مصاير الشعوب

والسعي للرزق والأرزاق قد قسمت
بغى ألا إن بغى المرء يصرعه

«ابن زريق»

جرى قلم القضاء بما يكون
فسيان التحرك والسكون

«أحدهم»

لو كنت أهجب من شيء لأعجبني
سعى الفتى وهو مخبوء له القدر

«منسوب لكعب بن زهير»

* * *

هكذا فهموا القضاء والقدر، وهكذا اعتقدوا في انفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك، ولا تتصرف وإننما يتصرف فيها، ولا تفعل وإنما تنفعل، وليست لها قوة ولكن قوة غيرها تظهر فيها، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها أن تنتظر حتى تكون محلاً وظرفاً لأعمال الآخرين... وهكذا فقدوا كل ثقة بأنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية. فانهاروا كما ينهار كل بناء فقد أساسه.

ليس من الممكن أن يقدم الإنسان على العمل إقداماً يمكنه من الأخذ بناصيته ومن قهره لإرادته حتى يعلم علماً ليس بالظن أنه قادر عليه كفوله، وأن له قوة تتركز في ذاته يفعل بها متى شاء ويترك إذا شاء – وحتى يعلم علماً ليس بالظن أيضاً أنه ليس هنالك قوة خفية مسلطة على منعه، مكلفة بأن تضع العقبات في طريقه، متحكمة فيه تحكم القوي الجاهل في الضعيف العاجز، دائبة على معاندته ومعارضته كلما حاول أن يقدم، وكلما هم أن يحجم، منتظرة أحياناً حتى يحرث ويزرع فإذا ما أوشك أن يجني ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر وتركته محسوراً مثبوراً... وليس من المستطاع الجمع بين إعتقاد المرء في نفسه

http://www.ithar.com

أنه عاجز عجزاً ذاتياً لازماً عن العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال، وبين نجاحه في الحياة وإتيانه بأعمال تعد باهرة... وإن الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن إقتحامه، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه. فإذا ما أردته على أن يجتاز نهراً واسعاً امتنع وحرن مهما عالجته وضربته وكذا إذا حملته على أن يقفز فوق حاجز شديد العلو، ولكنه يجتاز ويقفز المجاري الصغيرة والحواجز المنخفضة بلا معالجة ولا معاناة.

وأصول التربية الحديثة الموضوعة بإرشاد علم النفس والإستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الإيحاء الذاتي وعلى العمل به – أي على إفهام كل إنسان بأنه قوي قادر على ما يراد منه أن يعمله، وعلى أنه يستطيع أن يأتي من الأعمال بالمعجزات والخوارق، بل على أنه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الإنسانية، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له، وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال – إذا أحسن إستخدام مواهبه وأحسن شحذها – لا يقف عند غاية ولا يعجز عن بلوغ نهاية؛ وعلى إفهامه أنه خلق معداً مهيأ لأن يتغلب على كل شيء وأن يصارع كل ما يقف في طريقه وأن يسمو حتى يلاحق الخيال، لا بل حتى يسبق الخيال؛ وعلى إفهامه الإستقلال في العمل وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج إليه وحده دون عون ودون رعاية، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له... وهذا ما يسمونه التربية الإستقلالية. وهذه التربية هي أعظم تربية. والأمة التي تصل إليها وتقدر عليها تضحى أقوى وأعظم أمة.

وقد ثبت أن الشعب الذي يمكن إقناعه وإيمانه – بأسلوب صحيح – بمقدرته وكفايته، لأن يعمل ويبدع ويبتكر ويسود، وأنه يستطيع أن يجد في مواهبه الخاصة وقواه النفسية ما يرد به على كل عدوان وما يكبح به جماح كل متطاول – لقد ثبت أن مثل هذا الشعب من العسير أن يهون وأن يذل وأن يجيء متأخراً في حلبة السباق العالمي أو أن يعجز عن صعود قمة الأهداف الإنسانية العليا، أو يقف دون أمل من آماله الكبرى يرنو إليها بعينيه ويقصر عنها بأعماله وآماله – كما ثبت أن الشعب الذي يمكن إقناعه وإيمانه بعكس ذلك – أي بعجزه وضعفه وهوانه وأنه ليس أهلاً لشيء ولا جديراً بشيء وأنه مجرد من كل القوى التي يمكن إستخدامها في إدراك ما يراد إدراكه، وأنه أينما يوجه لا يأت بخير

من قبل ذاته ومن إستعداد نفسه، وأنه من غير الممكن أن يكون قادراً على شيء من هذه الآمال والحاجات البشرية الضرورية – نعم ثبت أن الشعب الذي يصل في سبيل كفره بنفسه إلى هذه المكانة لا يمكن أن ينتظر له حياة صحيحة، ولا وجود صحيح، ولا وثبة ينتصر بها حق أو ينقمع بها باطل، بل لا ينتظر منه إلا الإستسلام لكل ما يفاجأ به الزمان، ولكل ما تأتيه به الحياة من ألوان الهوان، وأن يكون حملاً على الإنسانية في مراحلها كلها لا تنتفع به ولا هو ينتفع بنفسه.

وهذا كما ثبت صدقه وصدق حكمه في الشعوب ثبت أيضاً صدقه في الأفراد، فالفرد الذي يؤمن بقدرته وقوته وكفايته ليس كالفرد الذي يكفر بذلك، فالأول يكون مقداماً مغواراً ناجحاً في كل ما يتعاطاه، والثاني يأتي عاجزاً رعديداً صغيراً في كل محاولاته إن كانت له محاولات.

ونحن في هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون في تقوية هذا الإتجاه أشد مباراة، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التي لا تغلب، وإقناعه على أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف في طريقه، ويحطم كل العقبات والمشكلات والأزمات. وقد عد رئيس الحكومة البريطانية في هذه الحرب من أقدر الرجال وأعاظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناع نفسه وإقناع الشعوب البريطانية، بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الأعداء...

وقد استطاع هذا الرجل العجيب الجبار بهذا الإيمان وبهذا الإيحاء أن يغير إتجاه الحرب هذا التغيير الذي كان يعسر جداً أن يوجد من ينتظره. وقد كنا نحن معشر الشرقيين ننظر إليه وإلى خطبه وكلامه في سني الحرب الأولى نظرة الإستهزاء أو السخرية أو التعجب أو الإستفهام، لأننا نجهل سر هذه القوة وسر الإيمان بهذا الإيحاء وسر الثقة المطلقة بالنفس... وقد استطاع الإنجليز بذلك أن يفلتوا من الدمار الذي كان محققاً في نظر الناس، ثم استطاعوا بذلك يصلوا إلى النصر الذي كان يعد حلماً من الأحلام المشوشة المتعبة.

ولا شك في أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم كله وعبأت قوتها المحدودة الضئيلة لهذه الحرب بإيمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجاباً ودهشاً وفرقاً، وأنها إنما وقفت – وقد ضربت عليها الدائرة بإحكام وتضييق من كل جانب تناضل موارد بشرية وغير بشرية تفوق موارد

http://www.ithar.com

البشرية وغيرها عشرات المرات نضالاً هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال إنه إنتحار الأحرار الأبطال – بهذه الثقة نفسها وبهذا الإيمان نفسه. أما اليابان وما أعدته لمجابهة خصومها الغربيين الأقوياء ومجابهة معظم البشرية، فأمر هو أعظم من أن توجد له الألفاظ والعبارات... وليس هنالك ريب في أن ألمانيا إنما بارزت قوى العالم كله – وكذلك اليابان – لإيمانها وثقتها المطلقة بما يكمن فيها من القوى والكفايات، وأن الإنجليز إنما غيروا مجرى الحرب الهائل الجارف بهذا الإيمان وهذه الثقة أيضاً، وأن أحد الفريقين لو فقد هذا الإيمان وهذه الثقة لما أمكن أن يخوض طوفان هذه الحرب بهذا التصميم وهذا العناد والإباء.

وقد راح العلاج النفساني يستخدم هذا الإيحاء الذاتي وينتفع به أعظم إستخدام وأعظم إنتفاع، وصار على رأس قائمة العقاقير الطبية الطبيعية، وقام البرهان أخيراً كما ذكر العلماء على أن أعظم ما يمكن أن يقدمه التنويم بالإيحاء للبشر من فائدة هو إستخدام هذا الإيحاء في شفاء الأمراض أو تخفيفها، وفي حل العقد النفسية المستعصي على الطب حلها – وثبت عدا ما ذكروا أن لهذا الإيحاء قوة تكاد تكون سحرية في علاج ضروب كثيرة مما تعاني الإنسانية وتشكو.

ولو أن إنساناً راح يوحي إلى نفسه، أو أخذ يوحي إليه من يثق به، أن أحد أعضائه غير صالح للقيام بوظيفته ولا للإنتفاع به فاقتنع بهذا الإيحاء وترك إستعمال هذا العضو مدة طويلة لفسد ولصار غير صالح أو لصار ناقصاً.

فالإيمان بالنفس إذن وبقدرتها هو أصل التربية الصحيحة القويمة، وهو أول السير في الطريق، والكفر إذن بالنفس وبكفايتها وإستعدادها مؤد لا محالة إلى الدمار وإلى التخلف في سبيل القافلة الجادة في سيرها نحو آمالها المختلفة العظمى. فالتعاليم القائمة على أن الإنسان خلق عاجزاً مجرداً من كل قوة وعاجزاً عن أن يعمل شيئاً – وإنما هو ظرف ومحل للأعمال كما يقول هؤلاء الجاهلون على حسب ما فهموا القضاء والقدر – هي تعاليم زائفة خبيثة قاطعة للطريق مهلكة لمن أخذوا بها. وليس من الممكن أن تحيا أمة تدين بهذه التعاليم. ومحاولتنا أن تنهض الأمم الإسلامية من كبوتها وأن تخرج من هذا النطاق المضروب عليها ومن هذا الحصار الذي لزها إلى الذل والمسكنة – وهي مؤمنة

بهذه التعاليم – محاولة غير مجدية ولا ريب.

* * *

ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين، زاعمين لهم أنها مما يوجبه الإيمان بهما؟ يقولون إن معنى القضاء والقدر أشياء:

أولها – أن الله سبحانه قد سجل على الإنسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطاً لا إنفكاك منه، بحيث لا يجدي معه الإرشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج.

ثانيها – أن الله أوجد في الإنسان الذي يعمل الشر الإستعداد للشر في أصر خلقته وطبيعته دون الذي يعمل الخير، فإنه تعالى خلق فيه الإستعداد للخير دون الإستعداد للشر، فقد فرق بينهما في أصل الخلقة والطبيعة. فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعداً له، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيراً أو بذر الشعير أن يخرج قمحاً.

ثالثها – أن الله قد أرصد، بطرق خفية غامضة، في سبيل كل إنسان ما يوجهه بالقوة إلى الأعمال التي يعملها – أو التي تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح – بأسباب خفية وبدون أسباب؛ فالجبان العاجز الضعيف مسوق إلى جبنه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها، والشجاع القوي الجريء مسوق أيضاً بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة – وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق.

رابعها – أن الإنسان الذي يريد الخير أو الشر لا يريد شيئاً منهما بنفسه، وإنما الله الغلاب هو الذي يخلق إحدى الإرادتين فيه لأسباب غير معلومة، أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق! فإذا خلق هذه الإرادة الشريرة في نفس إنسان لم يستطع أن يعمل غير الشر، فيندفع إلى الأعمال الشريرة بهذه الإرادة، فيصير شريراً ولا بد.

خامسها – أن الإنسان ليس عاملاً ولا فاعلاً في الحقيقة، وليست له القدرة على العمل بل على شيء ما! والإنسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلاً لأعمال الخلاق؛ فكل الأعمال الخيرة والشريرة التي يعملها الإنسان في الظاهر أو التي تعمل فيه إنما هي أعمال الله وصنعه وحده، والعبد

http://www.ithar.com

ليس له فيها غير المحلية – أي كونه محلاً لها. وقد زعموا أن من اعتقد أن الإنسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو مشرك لأنه اعتقد أن مع الله موجداً وخالقاً آخر! والإيجاد عندهم هو الخلق. وقد كفر فريق منهم المعتزلة، وقال المتعدلون منهم إنهم ضلال فقط، لذهابهم إلى أن الإنسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازاً... وهم يسمون من يقول بقدرة الإنسان بالقدرية، أي بالمعطين للإنسان قدرة ذاتية.

ومن رأيهم أن العبد ليس علة لأعماله وليس فيه قدرة عليها. ومن قول إحدى العقائد المنظومة المدروسة في الأزهر الذي يمل عقائده على أربعمائة مليون مسلم – أو الذي يحاول هذا الإملاء ويسلمه له الملايين – من قول إحدى هذه العقائد في تجريد الإنسان من قواه:

ومن يقل بالقوة المودعة
فذاك بدعي فلا تلتفت

أي من يقل بأن في الإنسان قوة على أعماله أودعها الله فيه فهو مبتدع في الإسلام لا يلتفت إليه – هذا هو فهمهم للقضاء والقدر، وهذه هي منزلة الإنسان لديهم.[1]

(١) وقد كان الناس فيما مضى يعزون أخطاءهم ونقائصهم إلى الشيطان تارة، وإلى القضاء والقدر تارة أخرى، فزادوا أخيراً ثالثاً هو الإستعمار. فإذا ليموا على خطأ أو ضعف أو إنحطاط وفساد قالوا إننا ملزومون بذلك مجبورين عليه، وإن الذنب إما ذنب القضاء والقدر – أي ذنب الله، وإما ذنب الشيطان، وإما ذنب المستعمر، وإما ذنب أولئك كلهم – يريدون التنصل من التبعة ويرون أنهم مصيبون في هذا التنصل... فازدادوا بذلك إقامة على الخسف ولصوقاً بالضعف ورضاً بما يصيبهم من عدوان وهوان... كأن القضاء إنما يقضي عليهم ولا يقضى لهم، أو كأنما يقضي عليهم ويقضي الآهرين لخصومة بينه وبينهم وصداقة بينه وبين الآخرين... وكأنما الشيطان مرسل عليهم وحدهم ليسوقهم إلى ما هم فيه ويلزمهم به، ومرسل إلى الآخرين ليخدمهم ويسعدهم ويهبهم القوة والسلطان... وكأن المستعمر إنما غلبهم وأخضع ديارهم لا لقوة فيه وضعف فيهم وفضيلة لديه ورذيلة لديهم، بل لا لشيء سوى أنهم مسلمون وهو كافر، وسوى أنهم قريبون من الله وهو بعيد عنه!! وكأنما المستعمر هو الذي أفسد ضمائرهم وقلوبهم وعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم!! والواقع أن الإستعمال يجب أن يكون حافزاً إلى الحياة والقوة والكمال. وذلك أن للمستعمر جانبين: جانب طغيان يصبه على من ابتلى به، وجانب كمال هو مصدر قوته وسيادته.

أما الجانب الأول فيجب أن يكون مصدر قوة للمغلوب لا ضعف، لأنه يهيج فيه الحمية ويضرمها فتولد القوة الباطشة، وأما الجانب الثاني فيجب أن يستفاد منه على سبيل الإقتداء إذ يجب أن يأخذ الضعيف عن القوي فضائله وحسناته.

فالإنسان ليس فاعلاً وليست له القدرة على الفعل! ثم اختلفوا بعد هذا هل يسمى كاسباً أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف! قالت طوائف لا يسمى كاسباً وإنما هو الجبر البحت والظرفية البحتة والإضطرار المطلق في الظاهر والباطن.

وقالت الطائفة التي تدرس آراؤها وعقائدها في سائر المعاهد الإسلامية – وهي الطائفة المحسوبة على الأشعري، المنسوبة إليه، المسماة بأهل السنة – قالت هذه الطائفة: بل نسميه كاسباً، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل في معنى الكسب والكاسب فردته إلى الجبر المحض الذي لا غبار عليه؛ فقد قيل لها هل العبد فاعل حقيقة؟ قالت: لا. فقيل لها: هل هو شريك في الفعل مشاركة حقيقية؟ فقالت: لا. فقيل لها: هل هو سبب حقيقي في وجود الفعل الواقع فيه فقالت: لا. فقيل لها: هل هو موجد له؟ فقالت: لا. فقيل: وهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال – أي هل هو مختار في حدوث الأفعال الواقعة فيه وفي عدم حدوثها – فقالت: لا. فقيل لها: إذن ما معنى كونه غير مجبور؟ قالت هو أنه كاسب. فقيل لها: وما معنى كاسب؟ قالت: هو كونه كاسباً! فقيل لها: هذا له خبيء! قالت: معناه ليست لنا عقول.

فالكسب عند الأشعرية هو الجبر في المعنى عند الجبرية، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب. وقد عدّ المذهب الأشعري في هذه المسألة من المذاهب التي تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى فقيل في ذلك:

مما يقال ولا حقيقة تحته
معروفة تدنو إلى الأفهام

ولم يكن وجود الإستعمار يوماً ما مانعاً من الخلاص منه إلا إذا كان وجود الفقر والمرض وغيره الآفات والنقائص مانعاً الخلاص منها.

ويجب أن يعتقد أن فقد أمة لإستقلالها ما هو إلا بمثابة العقوبة الإجتماعية جزاء ترك واجب محرم. والعقوبات – من حيث هي – يجب أن تؤدي إلى الإصلاح والتطهير والإقلاع عن سبب الـ وإذا كان السارق إنما تقطع يده أو يسجن من أجل أن ينزع عن هذه الجريمة وأن يكون أكمل عقابه، فكذلك الدولة التي تمنى بسلب عزتها وسيادتها – جزاء ضعفها وتقصيرها وتفريطها – يؤدي بها ذلك إلى تدارك ما فات وإلى النزوع عن أسباب هذي العقوبة القاسية. ولا تكون العقو في دوام العقوبة أو سبباً في بقاء الجريمة، كما لا يكون الإستعمار مؤدياً إلى دوام أسبابه أو إلى وتكررها.

http://www.ithar.com

الكسب عند الأشعري والحال
عند الهاشمي وطفرة النظام

فأعظم معاني القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الإنسان ليس فاعلاً ولا عاملاً وإنما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شيء، والإنسان لا يعدو أن يكون محلاً لما يسمى أفعالاً له. والقضاء هو الفراغ من ذلك. فالعبد عندهم مجرد من كل شيء سوى الظرفية. فهو عاجز عجزاً تاماً، والله لم يخلق له قوة يفعل بها! ومن قال بهذا فهو كافر في رأيهم، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط. وقد اشتدت المبارزة في العصور الأولى إبان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه، ولكن كانت الغلبة في النهاية لمن يسمون أهل السنة فاندحرت جيوش الإعتزال، بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقية معروفة، واختفت كتبهم أو انقرضت، وصارت عقائدهم لا تعرف في الغالب إلا من كتب خصومهم عندما يذكرونها لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم. فأصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهل السنة – أي من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم في كل شيء... وقد انتشرت هذه الآراء والمذاهب إنتشاراً عجيباً، فتمكنت من قلوب المسلمين وعقائدهم، وسيطرت على حياتهم وأحاطت بهم بل طوقتهم، وضربت أو فرضت عليهم الحصار. فلم يقدروا على الخروج والإفلات، بل لم يفكروا في ذلك، بل لم يريدوه إذ حسبوا أن محاولة الخروج منه هي محاولة للخروج من الإسلام ومن القضاء والقدر وهما ركنان من أركان الدين. وصارت العاقبة أن رضوا بالإستسلام وراضوا أنفسهم عليه، حتى أصبح طبيعة من طبائعهم وخلقاً من أخلاقهم؛ فإذا أصيبوا بخير – وما أقل ذلك وأندره – استسلموا وجمدوا تحت رحمة الأقدار والأقضية على حسب فهمهم لها إنتظاراً لعملها هي فيهم حتى يسلبوا هذا الخير. وإن أصابهم شر وهوان، وما أكثر ذلك، ضرعوا له واستسلموا وقالوا: إنها الأقدار هي التي فعلت وهي التي يجب أن تفعل – وقالوا إن الله هو الفاعل الضار النافع – وما أكثر كلام الحق الذي يراد به الباطل! وراحوا ينشدون مع المنشدين – وقد أخذتهم غاشية من الجنون الإعتقادي:

جرى قلم القضاء بما يكون
فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق
ويرزق في غشاوته الجنين

وراحوا يقولون كما يقول الشيخ الغزالي في أحد كتبه المشهورة: "والرزق مقسوم لا تتبدل ولا تتغير قسمته! فإذا علمت أنه حق لا يتغير فأية فائدة في الإهتمام والطلب إلا الذل والهوان في الدنيا، والشدة والخسران في الأخرى!! ولذلك قال عليه السلام: (مكتوب على ظهر الحوت والثور: رزق فلان بن فلان، فلا يزداد الحريص إلا جهداً) ولذلك يقول شيخنا: ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا يمكن أن يمضغه غيرك."

ومن أقبح ما قيل في هذه المسألة إني قرأت في كتاب من كتب هؤلاء ما معناه: أنه يجب علينا أن نعتقد أن حكم الأجانب لنا وإستبدادهم بنا وإغتصابهم إيانا هو أمر من أمر الله، فلا ينبغي لنا أن نغضب منه ولا أن ننكره، بل الواجب علينا أن نرضى ونستسلم.

وقرأت منذ أيام في كتاب محترم عبارة معناها: أن المسلمين يرون أن حكم الأجنبي أهم من حكم الله لقوله تعالى: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فيرضون ويسلمون. ولهذا فإنهم لا يحاولون الثورة بمن يحكمونهم من الأجانب كما يصنع الآخرون من غيرهم، ولا يحدثون القلاقل والفتن!!

وقد تفاعلت هذه الآراء وأخذت أطواراً خطيرة على مر العصور حتى أضحت من الأدواء المتوطنة القديمة في ديار المسلمين، وصارت كلمتا القضاء والقدر هما المدد الذي لا ينقطع لتغذية هذه الأدواء وتغذية جراثيمها حتى أصبحتا من أعظم الحقول التي تزرع فيها هذه الجراثيم والتي تكفل لها الحياة والنمو... وصرت تسمع أينما ذهبت على كل شفة ولكل مناسبة: إنه القضاء والقدر!

ناد في جموع المسلمين منكراً عليهم إختصاصهم بالذل والإستعباد دون العالمين، فإنهم سيجيبونك: إنه القضاء والقدر – قل لتاجر أو صانع أو زارع لماذا أنت صغير فقير وفلان من الأجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والأموال العظيمة، فسيجيبك أيضاً: إنه القضاء والقدر – كلم من شئت، شئت، منكراً أو معاتباً أو مستفهماً، فستسمع الجواب أيضاً: إنه القضاء

http://www.ittar.com

والقدر... فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول، وهما السبب الظاهر المعقول في كل فشل، وفي كل هوان وعبودية، وفي كل عجز وضعف وفقر وبؤس.

شعوب ظلت مئات السنين تعلم وتراض على أنها ليست لها قدرة، وأنها ليست فاعلة، وأنه ليس في الإمكان أن تكون كذلك، لأن الفعل والقدرة من صفات الله الخاصة التي لا ينازعه فيها إلا الكافرون – وظلت مئات السنين تعتقد أن هذا هو الإيمان، وأن المخالفة فيه مخالفة فيه – وظلت مئات الأعوام تلقن بكل وسيلة هذه التعاليم غير مسمعة سواها – شعوب هذه هي سبيل تربيتها أنى يرجى لها غير ما أصابها! وأنى يرجى منها غير ما هي فيه من القنوط والهبوط.

قد يقول قائلون من المشغوفين بالإعتراض والمشاكسة: إنه لا يصح أن يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر، ولا أن تحمل كل هذه الإعباء، لأننا نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا – هي وإن كانت باطلة – إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات – إذا قيل هذا قيل في الجواب: ما أعظم ما تخفي على الإنسان نفسه وتخفي عليه حقيقته! أجل، إن المسلمين يأتون شيئاً كثيراً من الأعمال الصغيرة، تدفعهم إليها في الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى، أو يدفعهم إليها الفكر القلق المشوش، أو يندفعون إليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبداً وتكليفاً فقط كما كلفوا بالصلوات والدعوات، لا لأنها تفيد بذاتها، أو يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة. ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم، أو تفقرهم وتغنيهم إعتقاداً جاداً، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون في ما يأتون ويذرون، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة، أو أن فيهم قوة ذاتية، أو أنه ليس هناك عوامل خفية – وهي ما يدعونه بسر القدر – تعمل أبداً على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون، وتعمل على منعهم نيل الثمر الذي بذروه وزرعوه، ثم كادوا أن يجنوه ويحصدونه، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون، وأنها هي – أي العوامل – قادرة قوية، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائماً جزاء وفاقاً – هل اعتقدوا شيئاً من هذا أو هذا كله إعتقاداً صحيحاً لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب؟ كلا إنهم لم يعتقدوا شيئاً من هذا، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالاً تفضي بهم إلى

النجاح والظفر المبين، أو كيف يمكن أن يقوموا بأعمال كبيرة قوية، وكيف إذن لا تترتب كل تلك النتائج التي ذكرناها على عقيدة القضاء والقدر التي فهموها؟؟

إن من أغرب ما جاء في هذه المسألة ما ذكره أحد العلماء في كتاب له مشهور مطبوع – وقد طويت اسمه عن هذا المقام – قال في ذلك الكتاب:

"فصل. من ترك الإختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقص أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالإختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وعلم أنه أعلم بمصلحته منه وأقدر على جلبها وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم منه لنفسه وأبر به منه لنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة: فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر، فألقى نفسه بين يديه، وسلم الأمر كله إليه وانطرح بين يديه إنطراح عبد ضعيف مملوك بين يدي ملك عزيز قاهر له التصرف بعبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه... فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والحسرات، وحمل مصالحه وحوائجه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه، وأراه لطفه وبره ورحمته فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه، لأنه صرف إهتمامه إليه وجعله وحده همه، فصرف إهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفراغ قلبه... فما أطيب عيشه وأعظم سروره.

"وإن أبى إلا تدبيره لنفسه وإختياره لها وإهتمامه بحظه خلاه وما اختار وولاه ما تولى، فحضره الهم والغم والحزن والخوف والتعب وكسوف البال وسوء الحال... فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها، بل قد حيل بينه وبين مسرته وقرة عينه، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحوش ولا يظفر منها بأمل... والله قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً، فإن قام بأمره قام الله له بما ضمنه له من الرزق والنصر وقضاء الحوائج... فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه والكفاية لمن كان هو همه، وقضاء الحوائج لمن صدقه ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه في فضله وجوده...

... "فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره لا بضمانه. فإنه الوفي الصادق. ومن أوفى بعهده من الله. فمن علامات السعادة صرف الإهتمام إلى أمر الله دون ضمانه، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الإهتمام بأمره وخشيته والإهتمام بضمانه

http://www.ithar.com

"...انتهى كلامه.

وهذا كلام صريح في ترك العمل إستسلاماً للقضاء والقدر... وقد قدمنا أن ابن عطاء الله الإسكندري ألف كتاب (التنوير في إسقاط التدبير) وأنه موضوع للدعوة إلى ترك العمل وللإستسلام العام وللسبات الذي لا إفاقة منه – إما توكلاً وإما إنتظاراً لما تفعله الأقضية والمقادير، وإما كفراناً بالأسباب.

* * *

كيف يجب أن يفهم القضاء والقدر؟ إن كل ما ذكر هنا باطل فكيف إذن يجب أن يفهما – والإيمان بهما ركن من أركان الإيمان – وقد جاء ذكرهما في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً.

أما القدر فهو في مادته مأخوذ من التقدير، أي جعل الشيء ذا مقادير، أي ذا حدود. يقال: هذا الشيء قدر هذا، أي محدود بحدوده كما قال: «فسالت أودية بقدرها" وقال: "قد جعل الله لكل شيء قدراً"وقال: "ومتعوهن على الموسع قدره على المقتر قدره" وقال: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" وقال: "والله يقدر الليل والنهار" وقال: "وكل شيء عنده بمقدار" وقال: "وخلق كل شيء فقدره تقديراً" وقال: "والقمر قدرناه منازل." ويقال: قدرت الثوب أي جعلته على مقاس الجسم، أي مثله، أي محدوداً بحدوده. ويقال: قدر كذا كما قال: "إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر" ويراد التفكير والتروي في الأمر، وهو راجع أيضاً إلى جعل الحدود للشيء، ولكنها قد تكون حدوداً مادية، وقد تكون معنوية – أي قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديدها فكرياً بحيث تجيء وفاق الأمر المادي. وقد يكون المراد تصور الشيء بمقاييسه المادية وجعله مقدوراً ذا مثل وغايات معلومة. وقال: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" وقال: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم" وقال جرير:

جاء الخلافة أو كانت له قدراً

كما أتى ربه موسى على قدر

أي كانت الخلافة له كفواً وكان هو لها كفواً أيضاً، أي إن الأوصاف الموجودة فيه هي الأوصاف التي تشترط في الخليفة وتوجد في الخلافة الحقة، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخلافة فهو خليق بها وهي به خليقة، كما قال الآخر في هذا المعنى:

فلم تك تصلح إلا له

ولم يك يصلح إلا لها

وكذلك مجيء موسى ربه أي على مثل ووفاق في المعاني والصفات. وفي هذا المعنى قوله تعالى: "الله أعلم حيث يجعل رسالته." وليس المراد أن الخلافة جاءت الممدوح بمجرد القدر أي بمجرد المشيئة والقدرة من غير إستحقاق ولا أوصاف خاصة، فإنه حينئذ يكون أقرب إلى الذم منه إلى المدح، ولكن المقام هنا مقام مدح.

وقال شاعر آخر:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقا عن غرّة زلجا

أي هيىء في ذهنك موضعاً محدوداً معلوماً مثل المواضع التي تليق بالأقدام وتناسبها، أو مثل رجلك سواء.

وقال الآخر:

تقفون والفلك المدبر سائر

وتقدرون فتضحك الأقدار

أي تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدوداً وأزماناً، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة، وتقلب عليكم الأمر، لأن الأقدار هي نظام الوجود وهي سر الحياة، وأنتم لا تقدرون أن تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم.

فالقدر بجملته وجملة إستعمالاته يراد به التقدير، أي جعل الشيء ذا مقادير معلومة أي يراد به جعل الشيء منظماً في كمه وكيفه... فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته قد أوجد هذا الوجود: السماويات منه والأرضيات مقدراً بمقادير محكمة هي أدق في ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيميائي قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيميائيين، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التي يبدع في وضعها أبرع عقل. فما من شيء في هذا الوجود – سواء أكان معنوياً أدبياً أم مادياً – إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه. وهذا الضبط في التقدير جاء في الأشياء بالنظر إليها مستقلة وبالنظر إليها متصلة بغيرها – أي إن ضبطها أجرى عليها على إعتبارها وحدة مستقلة، وعلى إعتبارها جزءاً من العالم. فضبطت هي في نفسها، وضبطت مع سواها، أي إنها

http://www.ithar.com

مضبوطة مستقلة، ومضبوطة مشتركة مع غيرها. ولهذا جاء هذا العالم منظماً صالحاً للإنتفاع وللحياة وللإستقرار فيه وعليه... ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحاً لذلك.

وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشيء الكثير، وكل شيء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسباً ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التي أخذها غيره. ومن هنا حصل الإختلاف والتباين المقصود المفيد. وهذه النسب والمقادير التي أخذها أو التي أعطيها روعي فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذي أريد منها. ثم هذا الشيء في نفسه قد روعي فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون إجتماعه مع غيره ممكناً ومفيداً. ولنجعل ثمرة البرتقال مثلاً. فنقول: لهذه الثمرة ناحيتان: ناحية الكيف وناحية الكم. أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعييناً متقناً. وبهذا كانت برتقالاً، وكانت شهية لذيذة مستساغة وبهذا كانت أيضاً نافعة مغذية. ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التي جمعت. فالقدر هنا هو الذي جعلها بهذا الكيف المحكم.

وأما الكم فإنها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من التعيين، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً، لكانت غير متناسبة مع شجرتها التي تحملها ولا مقدرة بطاقة عيدانها التي تمسكها، ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها، فتهوى بها حينئذ إلى الأرض. ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت باسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب.

أما النخلة فإنها لما أن كانت قوية فإن ثمرها جاء ثقيلاً فكان التناسب صحيحاً والتقدير مضبوطاً. وأما البطيخ فإنه لما خلق متمدداً ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله. وهكذا يقال في كل شيء يقع تحت بصرنا وعلمنا.

وقد روعي هذا التقدير البارع في سائر المواليد وسائر أنواعها؛ فالمولود يجيء في كمه مقدراً بالأعضاء التي تحمله، ومقدراً بقدرتها على الحمل. فإن كانت الأوعية والأعضاء واسعة قوية كان المولود مناسباً لذلك، وإن كانت ضعيفة ضيقة جاء المولود على قدرها. إنا كل شيء خلقناه بقدر... ولكن الآية التي هي

نص في هذا قوله تعالى": الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما يفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار. "وقد اضطرب المفسرون كعادتهم في تفسير الآية، وقالوا وكتبوا كثيراً، ولكنهم لم يأتوا بشيء. والتفسير الصحيح هو أن الأرحام تزيد وتنقص وتكبر وتصغر على قدر ما هيء لها أن تحمل، وما تحمله وتصنعه يزيد أيضاً وينقص ويكبر ويصغر مقدراً بقدرها. فتغيض وتزداد هنا يراد بهما القدر، ولهذا ختمت الآية بقوله: "وكل شيء عنده بمقدار."

وهذا الكوكب الذي نعيش فيه قد حكمه هذا القدر من ناحية الكم وناحية الكيف وناحية إتصاله بالمخلوقات الأخرى؛ فقد قدر من الناحية الأولى بقدر معين، ومن الناحية الثانية – أي ناحية الكيف – قد أجرى فيه هذا القدر أحسن إجراء فجعل قسمين براً وبحراً، وكل منهما بمقدار، وجعل منه الخصب وغير الخصب، وجعل فيه الجبال والسهول والمرتفعات والمنخفضات والجوانب الصلبة القاسية والأخرى اللينة المهيلة والأودية والآكام، وأوجد فيه جميع المعادن الجامدة والسائلة التي يحتاج إليها الإنسان في صناعاته وفي كل شؤونه، وفرقت هذه المعادن تفريقاً عادلاً شاملاً، وضمن ضروب العناصر اللازمة لإنماء النباتات وتغذيتها، ثم طبعت هذه العناصر الأساسية لكل مخلوق وموجود بطبيعة بديعة تجعلها تنتقل وتتطور وتوجد ضروب الصور والألوان، ولكنها لا تتلاشى من أجل أن تبقى أبداً قائمة بحاجة الإنسان كلها، وأودع فيه جميع الجذور والبذور لتخرج كل هذه الأنواع من الحبوب والأشجار والفواكه التي لا يقوم بها التعداد، وشحن بالكثير من فصائل الحيوان والطيور وسائر الكائنات الحية، ثم قدرت فيه القوى المتجددة المتوالدة ثم قدرت هذه الموجودات جميعاً وقدر كل شيء فيها بمقادير هي الإبداع والإحكام، ثم فرض على هذا كله ناموس صارم يكفل له البقاء والإستمرار – إضطراراً وإختياراً – ويكفل له التعاون فيما بين آحاده والتكافل والإنسجام.

وأما من ناحية إتصاله بالموجودات الأخرى فالأمر في ذلك ظاهر. وقد قدر له مدار ليس من الممكن الإنزلاق عنه ولا الإفلات منه، وقدر بمقادير دقيقة من حيث الأبعاد والمسافات، وجعلت هذه الأبعاد والمسافات صالحة لبقائها – أي بقاء الأرض – وثباتها في مدارها ومكانها، ومناسبة لإيجاد المناخات المختلفة فيها، وإيجاد الفصول المختلفة الضرورية لقيام كل شيء بوظيفته، ولإيجاد سائر

http://www.ittar.com

المناطق الحارة والباردة والمعتدلة. وكل هذا ضروري لأخذه من الشمس وغيرها ما يحتاجه من النور والحرارة والقوة... ولو أنه لم تقدر له هذه الأبعاد تقديراً قائماً على الحكمة ومراعاة الفائدة لما كان صالحاً لوجود الحياة فيه؛ فلو أنه خرج عن مداره مائلاً إلى الشمس لكانت العاقبة الدمار، ولو أنه أفلت من قبضة الشمس ومن جذبها لكانت العاقبة أيضاً الهلاك. ولكنه القدر البالغ قدر كل شيء فأحكم تقديرهوقد أشار الكتاب إلى هذه المعاني في آيات تحمل الروعة والإعجاز فقال: "قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً. ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم..." فقوله "وقدر فيها أقواتها" وقوله "ذلك تقدير العزيز العليم" يراد به القدر الذي ضل فيه الناس وصيروه عامل ركود وإنحطاط مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط. والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق. وختام الآيات بقوله "العزيز العليم" هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء في مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة، وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده. فإن العزيز – وهو القوي الغالب – والعليم، هو الذي يفعل ذلك ويقدر عليه، لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزاً وإما أن يكون جهلاً، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لأنه العزيز العليم... ولو كان التقدير هو ما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال في إختتام الآية "ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير –" تعالى الله عن ذلك. وقوله "وبارك فيها" إشارة إلى سر القدر ولبابه وغايته. وقوله "ائتيا طوعاً أو كرهاً " إشارة إلى فائدته وإلى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل. وقوله "وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً" إشارة إلى قانون الجاذبية العام فإنه هو الذي يحفظ هذه المخلوقات من الهوى والتصادم. وهذا هو الحفظ والتزيين... والرواسي هي الجبال – يعني أنها ثابتة في أماكنها لا تتمايل ولا تتطاير مع دوران الأرض ودورانها هي معها، وكل هذا راجع إلى قانون الجاذبية والثقل. وأغلب الناس ممن ينظرون في القرآن وفي تفسيره يقولون إن "رواسي" هنا معناها مرسية أي

مثبتة للأرض لا ثابتة هي في نفسها! ويظنون أن الجبال هي التي تمسك الأرض وتمنعها من الميدان. وهذا خطأ في اللغة والعلم والدين: أما اللغة فإن رواسي إسم من رسا، لا من أرسى ورسا لازم. ولو كان المعنى ما ظنوا لقال" مرسيات "أو نحو ذلك وأما العلم فإنه لا يقرر أن الجبال هي التي تمسك الأرض، وإنما يقرر أن الجبال والأرض وكل شيء ممسك بنظام الجاذبية... وأما الدين فإنه يقول: "والجبال أرساها" فجعلها مرساة لا مرسية. ويقول "والجبال أوتاداً" والأوتاد هي المثبتة الثابتة في نفسها. وأما كونها تمسك الأطناب التي تربط بها فهذا ناشىء من ثبوتها هي في ذاتها.

وقوله "وهي دخان" صريح في إثبات نظرية تطور المادة. فإن قوله: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان" يدل على أن مادتها كانت موجودة قبل وجودها بهذه الهيئة، وأنها كانت غازية أو سديمية ونحو ذلك. بل القرآن قد أشار إلى تطور الإنسان بقوله: "ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً."

وقوله: "فقضاهن سبع سماوات" القضاء هنا هو القضاء الذي يقرن مع القدر كما سيأتي. فجمع في هذه الآيات بين القضاء والقدر لأنهما شبه متلازمين.

وكما ضبطت الأرض بالمقادير فقد ضبط كل شيء أيضاً بهذه المقادير والنسب. ويكفينا للإيمان بهذه الأقدار وبهذا الضبط أن نلقي نظرة فاحصة على هذه الجموع الهائلة من الكواكب المتلألئة فوق رؤوسنا، المطلة علينا بإشعاعاتها القوية والضعيفة، وأن نسأل أنفسنا: لماذا لا تتصادم هذه الجموع، ولماذا لا تتباعد وتتفرق وتصاب بالفوضى والإضطراب؟ إننا إذا فرضنا ميداناً من أكبر الميادين غاصاً بالسيارات وبالقطارات وبسائر المتحركات الجائية الذاهبة، أو فرضنا سماء مائجة بالطيارات مختلفة الأحجام، متفاوتة في سرعة الطيران وفي بطئه، متوازية ومتراكمة ومتراكبة، ثم فرضنا كلاً من هذه السيارات والطيارات لازماً نظاماً معيناً، ومكاناً معيناً، وطريقاً معيناً، بحيث لا تتصادم ولا تتباعد ولا يمسها شيء من الفوضى وإختلال النظام، مع فرضها خالية من الإنسان الذي يوجهها ويسيرها ويحفظها، بل لما كدنا نصدق ذلك... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به، أخذنا العجب بل لما كدنا نصدق ذلك... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به مضبوطاً سيرها ومرورها وتقدمها وتأخرها

http://www.ithar.com

بإرشاداته وتعليماته فإننا حينئذ نعجب من حسن نظامه، ونعلم أن ذلك راجع إلى دقة عظيمة في التقدير وفي إلزام كل مكانه بحساب تام ويقظة مستديمة... أما هذه الحشود الكوكبية الدائرة السائرة فإننا نعلم أن النظام الذي يحكمها والأقدار التي قدرت لأبعادها وللمسافات التي تربط بعضها ببعض، نظام وأقدار لا بد من التسليم بحكمتها وبراعتها.

ماذا يحدث لو تقاربت هي أو تقاربت مداراتها؟ وماذا يكون لو تباعدت هي أو تباعدت مداراتها؟ إن ذلك قد يخفى على غير العلماء، أما العلماء فإنهم يعلمون أنه هو الفناء لا شيء غيره.

إننا إذا دفعنا شيئاً ما إلى جهة العلو فإنه لا يلبث أن يرتد إلينا نازلاً هابطاً لا يقف حتى يقفه شيء. ولكن لماذا لا تهوى هذه الأرض إلى السماء أو إلى جرم آخر؟ أو لماذا لا تهوى الأجرام إلى الأرض كما يهوى الحجر الذي يدفع إلى السماء؟ إنه بلا شك لولا التقدير الذي ذكرناه لكان لا بد من الهوى والتصادم والتقاذف ثم لا بد من الهلاك. إذن فالأقدار هي التي أمسكت كل شيء وألزمته طريقه ومكانه، وإذن فالأقدار هي النظام وإذن فالإيمان بها هو الإيمان بالله والكفر بها هو الكفر الذي لا يغفر.

إن العالم يشبه إلى حد بعيد صناعة كبيرة فيها ملايين الآلات والعدد الدقيقة، وكل هذه العدد والآلات تسير وتدور وتتحرك بدؤوب لا ينقضي لغاية مقصودة ولإيجاد شيء متقن عظيم، بدون أن تقف هذه العدد والآلات، وبدون أن تتصادم أو تتعارض أو يصيبها ما يحدث الخلل... إن هذه الصناعة لا بد أن يكون كل جزء فيها وكل آلة وعدة مقدرة بتقدير حكيم دقيق من ناحية حجمها وناحية موضعها وناحية كيفها. ومن كفر بهذا التقدير في هذه الصناعة الضخمة فقد كفر بعقله. والإيمان بهذا التقدير هو الإيمان بالصناعة المذكورة، والإيمان بها هو الإيمان بصانعها. وكذلك هذا العالم إنما نظمه ونظم وجوده وبقاءه وكل ما فيه الأقدار المودعة في أجزائه الصغيرة والكبيرة. ولا يمكن الإيمان بالله مع الكفر بهذا، كما لا يمكن الكفر بالله مع الإيمان بهذه الأقدار إلا أن ينأى المرء عن عقله بعيداً. ولكن الكفر بهذه الأقدار هو كفر بالإنسانية العاقلة المفكرة. فلا يكفر إذن بالله إلا من كفر بالإنسانية وبمزاياها العقلية والمنطقية.

ويجب أن يعلم أن الأقدار كما نظمت الماديات فقد نظمت المعنويات؛ فمن

الإيمان بالقدر الإيمان بأن لكل عمل جزاء على قدره، لا جزاف ولا ظلم. وما أجمل قوله" جزاء من ربك عطاء حساباً "فالجزاء بالحساب، والحساب هو القدر. وهذا مثل قوله "فسوف يحاسب حساباً يسيراً"، وفي هذا قوله أيضاً: "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى" غير أنه يلزم أن نفهم كلمات أعطى واتقى والحسنى وبخل واستغنى واليسرى بأوسع مما فهمه المتحكمون في كتاب الله. فإننا حينئذ نهبط على كنوز من المعاني كانت حراماً على من ضاقوا بأفهامهم أو ضاقت هي بهم... هذا هو معنى القدر الذي هلك به أغلب الناس.

وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه؛ فما جاء في ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد عليها. وقد استشار عمر الناس في الرجوع، فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضي، فاختار بفطنته الثاقبة وبصيرته النفاذة – الرجوع فقيل له أفراراً من قدر الله؟ فقال – واعجب بما قال – نفر من قدر الله إلى قدر الله! ثم قال للمعترض: أرأيت لو هبطت وادياً فيه مكان مخصب ومكان مجدب، فإن رعيت المخصب رعيته بقدر الله، وإن رعيت المجدب رعيته بقدر الله... ثم حدث بنهي الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك. وهذا صريح في أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون، أما قوله نفر من قدر الله إلى قدر الله فإنه يريد أن الله بسننه قد جعل للأمراض وللإصابة بها أسباباً مقدرة – ومقدرة هنا بمعنى منظمة – فالقرب منها والإتصال بالمصابين بها يوجب الإصابة إذا كان في الإنسان إستعداد طبيعي لها وليست لديه مناعة، والبعد عنها يبقي ذلك ويجيء بالسلامة إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى للمرض. فمن رجع عن دخول البلد المصاب فقد فر من قدر الله الذي هو الإصابة بالمرض ومن تقديره بأن يكون المرض عدواً للإنسان وأن يكون مصيباً به إذا قارفه – أي فقد فر من العطب ومن وسائله. وهذا الفرار مطلوب عقلاً وشرعاً وغريزة – إلى قدر الله – أي إلى السلامة حيث لا أمراض ولا أسباب أمراض، وهذا يسلم إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى غير التي فر منها، كما أن الذي يقدم على رعي الأرض المخصبة يقدم على الشبع والخير، والذي يقدم على المجدبة يقدم على المسغبة والهلاك لأنه

http://www.ithar.com

قد وضع نظام لهذا الوجود بأن يكون جانب منه مخصباً وجانب آخر مجدباً. وقدر الله الذي كان في الشام والذي أبى عمر وصحبه القدوم عليه بل رأوا الهرب منه، هو المرض لأن التقديرات والعوامل الكونية التي تحكم العالم قضت بأن يصاب الشام في وقت معين بالطاعون، وهذا الطاعون من قدر الله، لأن السنن التي جبل عليها الوجود – مقدرة تقديراً محكماً – يلزمها حدوث هذا الوباء لزوماً طبيعياً في الحين المعلوم بلا تخلف في الموعد المهيأ، إن لم يوجد ما يعارض ذلك من العوامل الأخرى الطبيعية التي خلقها البارىء لتحدث معلولاتها. وحدوث الأمراض والأوبئة هو كسائر حوادث هذا الوجود له أسباب وعوامل، كما أن له موانع ومعارضات، فإذا وجدت الأسباب والعوامل وارتفعت الموانع والمعارضات حدثت الأمراض. أما إذا لم تتهيأ هذه الأسباب، أو تهيأت ولكن عارضتها الموانع، فإنها لا يمكن أن تحدث، كما أنك إذا وضعت البذر الصالح في التربة الصالحة وسقيته نبت ونما إن لم يعارض نباته ونموه معارض. وهكذا يقال في كل شيء من الحوادث المستمرة ومن الحوادث اليومية أو السنوية أو الدهرية أو الشهرية.

أما القدر الذي اختاروا الفرار إليه فهو النجاة، لأن العوامل الكونية قضت إذ ذاك بأن تكون البلاد التي اختاروا الفرار إليها سليمة من الطاعون، وقضت هذه العوامل بأن يسلم من لم يتعرض له ويدخل عليه مكانه. وليس القدر الذي فروا منه ولا الذي فروا إليه هو القدر الذي يفهمه الجماهير، وإلا فإن هذا القدر لا يمكن الفرار منه، ولأجل هذا أوجد شارحو الأحاديث في قول عمر هذا إشكالاً قائلين: إن القدر لا يمكن الفرار منه، وما يمكن الفرار منه ليس قدراً لا حقيقة ولا مجازاً... ثم راحوا يضربون في بيد من الأوهام، ثم تاهوا في تلك البيد إلى اليوم. وكل هذا راجع إلى الوهم في المراد الشرعي منه... ومن ثم أيضاً حاولوا أن يوجدوا رواية يزعمون فيها أن عمر ندم على قوله وعلى رجوعه؛ فذكر ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري قال: أخرج الطحاوي بإسناد صحيح أن عمر قال: اللهم إن الناس نحلوني ثلاثاً أنا أبرأ إليك منهم: زعموا أني فررت من الطاعون وأنا أبرأ إليك من ذلك. وساق بقية الثلاثة.

وهذا يجب ألا يكون صحيحاً إذ كيف يبرأ عمر من شيء أمر به الرسول ومن شيء فعله ووافقه الصحابة عليه واحتج له ذلك الإحتجاج المسكت.

وفي الحديث أنهم سألوا الرسول وقالوا يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال (هي من قدر الله.) وقدر الله في الحديث هو ما شرحنا لأنه جعل الأدوية من القدر أي جعلها مقدرة بالأمراض وجعلها كفواً لها، بمعنى أنها تشفي منها وتقاومها إذا وضعت وضعاً صحيحاً كما قال في الحديث الآخر (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء عرفه من عرفه وجهله من جهله – وفي رواية – فإذا وافق الدواء لداء شفي بإذن الله.) ولو كان القدر في الحديث هو الذي يعرفه الجماهير لما جعلت الأدوية نفسها قدراً لأنها على هذا ليست قدراً بالإجماع. وفي حديث مروي في الصحاح: (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.) وقدر هنا لا يكون صحيحاً إلا إذا ذهب به ما ذهبنا إليه.

وقد احتمل طوفان الأوهام في طريقه الطوائف كلها حتى أولئك الذين ليس لهم إتصال خاص بالقضايا الدينية ولا بعلوم الكلام؛ فهذا البحتري الشاعر يقول:

ألا ليت المقادر لم تقدر
ولم تكن الأحاظي والجدود
فأنظر أينا يضحى ويمسي
له هذي المواكب والعبيد

ويقصد بقوله هذا أن الأقدار هي التي وقفت له بالمرصاد ومنعته أن يملك تلك المواكب وأولئك العبيد لأنها تريد أن تختص بها قوماً هم عاجزون بطبعهم وأعمالهم، وهم دونه في كل شيء – ولو أن هذه الأقدار والحظوظ لم تكن هي المسيطرة على هذا العالم سيطرة قائمة على القوة وحدها – ولو أنها تركت الناس أحراراً موكولين إلى نشاطهم الذهني والبدني، فلم تعط هذا جزافاً عطاء حتماً، ولم تمنع ذاك أيضاً جزافاً وظلماً، لأضحت هذه الأموال وذلك السلطان وأولئك الحشم والخدم لي دون سواي لأني أحق بها... وهو يذهب في هذا إلى أن الأقدار والحظوظ عبارة عن قوى خفية شريرة مصبوبة على هذا الوجود تحكمه حكماً جبرياً عابثاً لا يعرف العدل ولا الرحمة ولا الحق، وتتصرف فيه تصرفاً ليس له مثيل في طغيانه حتى ولا بين الناس الظالمين الباغين... ومن غير المستطاع أن يثمر هذا الإعتقاد لأهله وثوباً أو نهضة، ولن يكون ثمره سوى الكسل والجمود العقلي والبدني.

http://www.ittar.com

وقد أخطأ ابن هانىء الأندلسي خطأ مركباً حينما قال في أحد آلهته من البشر:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
واحكم فأنت الواحد القهار

وذلك لأنه ذهب كما ذهب الجميع إلى أن الأقدار هي القوى الخفية الخبيثة الظالمة التي أرسلت على هذا الإنسان تسوسه شر سياسة، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقى من أحد غوثاً وتذوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الإستمتاع بمواهبه وأعماله – وإلى أن هناك حروباً مستعرة أبداً بين المخلوقين وبين أقدارهم، تغلبهم أكثر الأوقات ويغلبونها أقلها، وإلى أن هذا الممدوح قد غلب أقداره غلباً نهائياً، فأصبح الذي يكون هو الذي يشاؤه، وأصبح الذي لا يكون هو الذي تشاؤه الأقدار، فأصبح هو الواحد القهار ولم يدر هذا الشاعر أن الإنسان لا يحارب أقداره وإنما بها يحارب، وأنه لا يمكن أن يغلبها إلا إذا أمكن أن يخرج من وجوده أو يسبق وجوده أو أن يكون أكبر من قدره وحقيقته... وهذا لا يمكن أن يكون.

ولسنا نحاول هنا إحصاء الأخطاء فإنها لا تحصى، ولكننا نحاول أن ندل دلالات ترشد إلى غيرها ثم تضع الحدود والقيود.

* * *

أما القضاء فإنه لا يخرج في جملة إستعمالاته عن أن يكون بمعنى الفراغ من الشيء. يقال قضيت الشيء فانقضى أي فرغت منه. والإنقضاء هو الإنتهاء. قال الله "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا." وقال: "قضى الأمر الذي فيه تستفتيان" وقال: "فلما قضى موسى الأجل" وقال: "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك" وقال: "فلما قضى زيد منها وطراً" وقال: "إذا قضوا منهن وطراً." وكلها بمعنى الفراغ وكذلك أمثال قوله "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" وقوله: "وقضينا إلى بني إسرائيل" أي فرغ ربك من الأمر بألا يعبد سواه وفرغ من إنهاء ذلك إلى بني إسرائيل. وقال الشاعر:

فلما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وقال آخر يرثي عمر:

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها
بوائق في أكمامها لم تفتق

وفي الكلام السائر على كل لسان: (قضيت أعمالي وقضيت ديني) وهكذا... فالقضاء يعني به الفراغ والإنتهاء. ومن النصوص في هذه الآية السابقة وهي قوله "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات." فقضاء السماوات معناه الفراغ من خلقهن وتسويتهن، ولهذا جاء في غير هذا الموضع "ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات" وجاء في سائر الآيات لفظ خلق السماوات مكان قضى وسوى. فخلق وسوى وقضى كلها بمعنى واحد؛ كلها بمعنى الفراغ والإنتهاء... فالقضاء إذن المقرون بالقدر يراد به الفراغ والإنتهاء. فالواجب علينا أن نؤمن بأن الله قد خلق الخلق ووضع النواميس والسنن ثم فرغ منها بحيث لا يحتاج إلى تعديل ولا مراجعة ولا تكميل أو إصلاح أو تدارك... بلّ كان فراغ من يعلم كل شيء وفعل من لا يؤوده شيء ومن لا يخفى عليه شيء... وكل الذين يقومون بتصميم الأشياء وبصنعها ثم يحتاجون إلى التعديل فيها أو النقض أو الرجوع أو الترك، فلا بد أن يكون سبب هذا إما الخطأ أو الجهل في وضع التصميم ورسم الخطة أو العجز عن التنفيذ أو أن يظهر في الآخر أنه لا فائدة من ذلك العمل، أو نحو هذا من الأسباب التي مرجعها النقص في القوى المادية أو في القوى العلمية... أما الكامل في ناحيتيه وقوتيه فإن كل خطة يضعها فلا بد أن ينفذها، ثم لا بد أن يفرغ منها بدون مراجعة. وهذا أعظم فارق بين الكامل والناقص... فإذا آمنا بالقضاء على هذا المعنى كان إيماننا إيماناً بالكمال المطلق لله، وإيماناً بكمال الله لا نستطيع أن ننكره، لأننا لا نستطيع أن ننكر كمال النظام الموضوع في هذا الوجود، لأننا لا نستطيع أن نكرر قوتنا العقلية التي دلتنا على أن التصميم الذي وضع لهذا العالم هو التصميم الذي وضع القوة العقلية الخليقة العاقلة...

وقد كان شقاء الإنسانية الذي ظل يتنقل معها هو أنها لم تستطع أن تصل طور الكمال في الناحيتين المادية والعلمية – الكمال الذي يجعلها تضع الخطة للشيء، ثم تفعله ثم تفرغ منه، ثم لا تحتاج إلى النقض أو التعديل أو التغيير بل ظلت أعمالها كلها في أدوار تاريخها الطويل عبارة عن مجموعات تجا

http://www.ithar.com

ناقصة مستمرة: بناء ثم هدم، ومدح ثم ذم، ووضع للأساس ثم إنصراف عن المضي في البناء والإتمام... وهكذا دواليك ومن المظنون أن تبقى تعالج التجارب إلى أزمان قصية، ومن المظنون أيضاً أن يبقى مذاق هذه التجارب مراً أليماً، وأن تتجرع منها أضعاف ما تجرعت... والإنسان اليوم يجني أمر ثمرة زرع شجرتها ورواها حتى تساقطت عليه!

وهو يزعم الآن على ألسنة زعمائه وآلهته أن هذه الحرب هي نتيجة لتلك التجارب الضالة التي وضعت للسلم الماضية... وهم اليوم يملأون مسامع الوجود ومسامع البشرية وآمالها، أماني، واعدين بأن تجارب السلم المقبلة ستكون ناضجة، وأن ما سيضعون من الخطط والتصميمات لمنع الحروب والقضاء عليها سيأتي قضاء مفروغاً منه... ونحن نسأل الله أن يكون ما زعموه صحيحاً، وأن يكونوا مقتنعين بما قالوا.

فالقضاء والقدر معناهما: أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير مضبوطة، محكوماً بسنن لا تقبل التغيير، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة أو نقصان، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء – وتعالى الله عن ذلك.

ونتيجة هذا الإيمان بالقصاء والقدر على هذا النحو أن تكون صلات الإنسان بالله وبالإنسان وبنفسه وبالخليقة كلها صلات سليمة مبنية على العقل والفكر الناضج، فإن الصلات بين الإنسان وبين ربه، وبينه وبين الإنسان الآخر، وبينه وبين نفسه إنما تفسد لإنكار القضاء والقدر بالمعنى الذي بيننا؛ فالإنسان إنما يتعلق بالخرافات والعقائد الباطلة ويشرك بالله ويعبد العاجزين ويضل في إتجاهه العام ويذهب إلى غير مذهب ويتمسك بغير سبب، ويريد من الوجود ومن الحياة ومن نفسه أيضاً ما ليس في الإمكان، ويروح يشيد قصوره وآماله الذهبية على الخيال الكاذب وعلى ما هو أوهى من ذلك – إنما يفعل هذا كله ويفعل غيره لأنه لم يؤمن بالقضاء والقدر بمعناهما الصحيح... ولو أنه عقل أن لكل شيء قدراً لا يتعداه، وسنة لا يفلت منها، وناموساً ليس في المستطاع الخروج من قبضته – ثم عقل أن الله قد فرغ من هذه السنن والنواميس والأقدار، وأنه قد طويت الصحف وجفت الأقلام، وأنه ليس من الممكن أن يحابي وأن يمالىء وأن يرشو أو يتملق أو يداهن – لو أنه عقل هذا كله لكان إتجاهه في الحياة وخطواته

في الطريق أقرب إلى الهدى وأبعد عن العثار والزلل.

فالأمم التي لا تؤمن بالقضاء والقدر بمعنيهما الصحيحين أمم لا يمكن أن تحسن في حياتها سوى التخبط والفوضى والإرتباك في شؤونها الخاصة والعامة، صغيرها وكبيرها... ومن أجل هذا كله – ومن أجل أشياء أخرى – كان الإيمان بهما من أركان الدين، وكان شأنهما ومقامهما من الإيمان عظيماً، لأن الدين إنما جاء منظماً ولا نظام مع الكفر بالقضاء والقدر اللذين بينهما. فالإيمان بهما إذن أولى خطوات الأمة في مدارج الكمال ومعارج السمو العقلي والمادي...

ولنختم هذا البحث برواية – هي وإن كانت ضعيفة الأسناد إلا أنها صحيحة المعنى مؤيدة لما قلنا. وذلك ما رواه البزار والطبراني عن ابن عباس وأبي قتادة قالا قال رسول الله: (هلاك أمتي في ثلاث؛ في القدرية والعصبية والرواية من غير ثبت.) والقدرية هنا إن كان المراد بهم المنكرين للقدر كان هذا واضحاً لما سبق من أن الذين ينكرون القدر يرون أن الوجود ليس فيه نظام وليس قائماً على الأسباب والمسببات. ومن كان رأيهم هذا فلن يكونوا هم منظمين لا في تفكيرهم ولا في أعمالهم، ولن تكون أفعالهم قائمة على أسبابها الصحيحة. وتبعاً لهذه الفوضى العقلية والعملية لن يكونوا شيئاً مذكوراً في الحياة... وأما إن كان المراد بالقدرية هم الذين يؤمنون بالقدر إيمان من ذكرنا فواضح أيضاً. فالقدرية على الإحتمالين لن ينجحوا في الحياة ولن يبلغوا منها شأواً عظيماً، ولن يصيروا أهلاً للقيادة والسيادة. وقد يكون المراد بالقدرية القدر، جاء على وزن النسبة.

http://www.ithar.com

التوكل - أخطاء الناس فيه
كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك في أواسط القرن الثالث عشر الهجري أن يدخل النظام الجديد الغربي على الجيوش العثمانية، فهاج الشعب وهاج الإنكشارية، يؤيدهم شيخ الإسلام والصدر الأعظم قائلين: إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار فأحدثوا شغباً عظيماً في العاصمة وغيرها، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون النظام الجديد، ويريدون إفساد طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة. ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عظماء الدولة الذين يطالبون بقتلهم. وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الإسلام عطاء الله أفندي. فجدوا في ذلك حتى قتلوهم، ثم خرجوا في الطرقات ينادون: أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم، نسيت أنك أمير المؤمنين، وعوضاً عن إتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد في دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة، وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام... ثم أصدروا إستفتاء فيه: السلطان الذي يخالف القرآن هل يترك على تخت السلطنة! وكانت الفتوى: كلا. ثم صاحوا: قد صار معلوماً عندكم أنه يتحتم عزل السلطان، فما قولكم الآن! هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام! فصاحت العساكر: كلا كلا. لا نقبله سلطاناً فليعزل... وفي نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذي أريد إدخاله على جيوش الدولة.

«مصادر التاريخ الإسلامية»

* * *

هذه حادثة واحدة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التي سقط فيها الناس من جراء فهمهم التوكل بحيث صار أحد الأمراض الإجتماعية النفسية الإعتقادية التي تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة.

وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء - كعادتهم - في تحديد معنى

التوكل إختلافاً كبيراً، وكتبوا فيه كلاماً كثيراً، وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الإصطلاحي لا يمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها في كلمة أو كلمات:

فعندهم أن من اهتم لشيء في هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل إلى شيء آخر، أو أن شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها، أو أن أحداً كائناً ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره، أو أن أمراً متوقف وجوده على أمر آخر، أو أن أمراً معلل بأمر، فقد خرج من جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه... وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله، مسلماً نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهني والجسدي، معتقداً أن الله سيفعل له كل شيء بأسباب يوجدها هو أو بلا أسباب... ومن رأيهم أنهم كلما غالوا في هذا الإستسلام وهذا التخلي عن العمل والتفكير في المصير والعاقبة لله التفت الله إليهم وسارع إلى قضاء حاجهم وإعطائهم ما يشاؤون وأن إيمان المرء وإسلامه مقيسان مقدوران بهذا الإستسلام والتخلي؛ فكلما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسداداً ورشاداً - وعلى حسب إهتمامهم وإلتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم - وعلى قدر تخلي الله تكون المصيبة والخسران... ومن مذهبهم أنه يجب أن يتفرد الله لهم بتدبير الرزق والحياة وكل ما يحتاجون إليه، كما انفرد بإيجادهم - وأن من حاول أن يوجد رزقه بنفسه أو أن يشارك الله في إيجاده فهو كمن حاول أن يوجد حياته أو أن يشارك الله في إيجادها، أو كمن زعم أنه موجدها أو شريك موجدها.

وقد ذهبوا إلى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس وهي أن الموكل يذهب إلى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير في تدبير ما وكل إليه، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الإهتمام والتفكير في شأنه، معتمداً على وكيله وعلى إخلاصه وعمله وإجتهاده كان ذلك التنحي أدعى إلى رضا الوكيل وإلى إخلاصه... ونحن هنا نثبت بعض ما ذكروا من عبارات.

فرأى بعضهم أن المتوكل لا يكون متوكلاً حتى يفقد التمييز بين الأشياء! قال أحدهم لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال ما تقول أنت؟ فقال إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك وشمالك ما تحرك لذلك سرك! فقال أبو يزيد نعم

http://www.ithar.com

هذا قريب! ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل.

ورأى بعضهم أن التوكل ترك الإضطراب جملة! سئل ذو النون المصري عن التوكل فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. وسئل أبو عبد الله القرشي فقال هو ترك كل سبب يوصل إلى سبب! وهذا كثير عنهم جداً.

وقال بعضهم إن أعلى درجات التوكل هو الموت جوعاً – ذكره الغزالي في الإحياء! قال: إن الموت جوعاً قربي إلى الله إذا كان الميت قد مات لأنه توكل على الله فترك العمل فلم يرزقه القوت وإنما رزقه الموت!! قال وموت المتوكل جوعاً يجب أن يعد رزقاً وغنيمة في الآخرة.

ومن رأى فريق أن التوكل ألا يدخر المتوكل شيئاً، فإذا أصاب مالاً أو شيئاً فرقه في الحال – قاله أبو يعقوب الزيات وعبد الله ابن الجلاء والغزالي في الإحياء وآخرون كثيرون.

وقال أبو سليمان الداراني لو توكلنا على الله ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص! وقال ذو النون سافرت سنين وما صح لي التوكل إلا وقتاً واحداً: ركبت البحر فكسر المركب فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لي نفسي: إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة! فخليت الخشبة فطفوت على الماء فوقعت على الساحل – حكى ذلك عنهما ابن الجوزي في تلبيس إبليس.

ومن قول طائفة أخرى أن التوكل هو ترك التداوي! وهذا مذهب خلائق. وروى ابن الجوزي في تلبيس إبليس عن سفيان بن عينية أن تفسير التوكل أن يرضى بما يُفعل به. وقال ابن الأثير في شرح غريب الحديث: معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد. وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول إليه... وفي قواميس اللغة: توكل على الله واتكل استسلم... وكلامهم في هذا الباب كثير جداً.

* * *

تطايرت هذه الآراء والأقوال في الكتب التي خلفها هؤلاء تطايراً لم يستطع وقفه ولا تحديد مداه، ثم فاضت من الكتب على الألسنة والعقول والأوهام وزخرت بها البيئات والمجتمعات الإسلامية، وشدا بها كل لسان وأشربها كل قلب، فأفسدت روح العمل وحبه والإعتداد بالنفس والتعويل عليها، ثم انجلت في النهاية عن أمم

إتكالية عاجزة لا تستطيع أن تستقل بأمر من أمورها الصغيرة أو الكبيرة، فهزمت هزائم ساحقة في كل الميادين، وصاروا أتباعاً في كل شيء، محتاجين في أقل شؤونهم إلى من يكلون إليه القيام به وإلى من يتوكلون عليه، مستسلمين لما يقوله ذلك الغير ولما يفعله، معترفين له بالعجز والضعف.

إن الشعوب التي تلقن منذ وجودها أنه لا يصح لها أن تعتمد فيما تحتاج إليه على قواها وسواعدها، وتلقن أن هناك قوة عليا مستعدة أبداً للقيام بكل ما يراد منها إستقلالاً، فما عليها إلا الضعف والإستسلام والإنتظار – وتلقن أنها عاجزة عن أن تعمل أو أن تستقل بالعمل لنفسها – وتلقن وجوب الإتكال بالمعنى السخيف الذي فهموه: – إن الشعوب التي يقضي عليها بأن تلقن هذه الخرافات والمحالات لهي شعوب غير جديرة بالحياة ولا بالإستقلال في جانب واحد من جوانبها، بل إن هذه الشعوب تخرج مطبوعة بروح الإتكال على الآخرين والإتباع لهم والإنتظار منهم... ولكن الأمم الجديرة بالكرامة وبالحياة هي الأمم التي تلقن منذ تستطيع الفهم أنها إنما وجدت في الأرض مجردة من كل ما يملك، مسلحة بكل أسلحة الجهاد والنضال، لتوجد حياتها هي بنفسها ولتعمل كل ما يلزم لبقائها وسلامتها وسعادتها – وتلقن أن الإنسانية بمجموعها هي التي أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها، دون أن يعينها معين ويشاركها مشارك – وأن هذه الإنسانية لو أنها انتحت هذا المنحى في الإتكال وراحت تلتمس من تتكل عليه ومن تكل إلى قوته القيام بما تريد وبما لا تستغني عنه لظلت حتى اليوم – أي من يوم وجودها – منتظرة مرتقبة ما لا سبيل إلى حصوله، ولبقيت كإحدى هذه الفصائل الحيوانية، أو لانقرضت كما انقرضت في سالف الدهور الأحياء التي عجزت عن مغالبة الحياة ومجابهة الطبيعة العاتية.

إن المعاني الإنسانية تنمي وتوجه وتمرن كما تنمي وتوجه وتمرن المادة: فإذا مرن عقل الإنسان على أن يباشر شؤونه بنفسه ويقوم بها هو ويخضعها لإرادته إستقلالاً وبلا مساعد، نما عقله واشتد وارتاض على مغالبة الأهوال والشدائد وعلى غلبها واتجه إلى ذلك إتجاهاً طبيعياً، وصار قادراً على حل ما يوكل إليه وعلى إتمامه. أما إذا لم يمرن عقله ولا فكره ولا أخلاقه على شيء من ذلك فإنه يبقى غير مستطيع لشيء غير صالح لشيء، كما أن جسمه إذا لم يمرن على

http://www.ithar.com

العمل لم يستطع أن يعمل، وإذا لم ينم بل يبقى هزيلاً عليلاً عاجزاً. ومن ذا يستطيع الكتابة أو السباحة أو ضرباً من ضروب الرياضة البدنية والأعمال اليدوية إذا لم يتعلم ويتمرن... إنك إذا عمدت إلى نوع من أنواع المادة النامية ووجهته غير جهته الطبيعية، وعالجته على ذلك فإنه يتجه غير جهته ويتحول إلى غير سبيله، ثم يأخذ وينمو على الوضع الجديد الذي وضعته فيه، ويصبح رجوعه إلى طبيعته الأولى محتاجاً إلى قوة غير ذاتية ترجعه وتضعه فيه. وهكذا تفكير الإنسانية وفهمها للحياة إذا غير وضعه وأفسد إتجاهه وصرف عن طريقه، فإنه يقبل ذلك ويأخذ يعتاده ويرتاض عليه حتى يتكيف به ويصير له طبيعة – أي إنه يفسد فساداً يمنعه النجاح ويوجهه إلى الفشل... فهؤلاء الذين يربون منذ الساعة الأولى، مفهمين بأن الذي عليهم هو أن يسلموا أمورهم كلها ويسلموا التفكير فيها إلى الله ليفعلها لهم وليبقوا هم متمتعين بالكسل وبلذيذ السبات الدائم، حالمين بأن الله مستعد لأن ينوب عنهم ويتوكل لهم ويحامي عن قضاياهم أمام محاكم النواميس الكونية الصارمة، قوم يربون على الدمار وعلى الموت، وعلى أن يتجردوا من كل قوة ويتخلوا من كل سلاح، متوهمين أن من لا يغلب يقاتل عنهم ويرد عن ساحتهم كل سنة غازية من سنن الطبيعة... ما أرخصها من معان وأضعفها من تعاليم! وما أرخص وأضعف من يتعلمونها.

ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ إلى حقائق علم النفس الكبرى طفلاً يولد في بيئة من البيئات، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شيء، وأن هذه القوة على إستعداد لأن تهبه كل ما يشتهي في كل وقت وفي كل مكان بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أن يستسلم لها ويركن إليها ويتوكل عليها ويثق بها – ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيماناً خالصاً – ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ إلى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل: كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شيء؟ ثم ليعلم أن شراً منه ذلك الطفل أو الرجل الذي يعلم هذه التعاليم الإتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للإستسلام والإنتظار.

مسألتان متشابهتان: إحداهما أن الإنسان وجد نفسه في مجتمع، ووجد أنه لا يقدر أن يظفر بحق من حقوقه في مجتمعه هذا إلا بالرجوع إلى الوساطات والشفاعات الواقفة على كل باب وأمام كل حاجة، فذهب يعتقد أنه أيضاً في طلب

حقوقه وحاجاته من الله لا يمكن أن يظفر بها إلا إذا اتخذ لديه الوسطاء والشفعاء، ذاهباً بهذه مذهب هذه – وثانيهما أن هذا الإنسان نفسه علم الإتكال وبري عليه مفروضاً في بدء الأمر في الله، فصار هذا الإنسان إتكالياً من كل وجه، مقدراً ومريداً أن يبلغ كل ما يشتهي من غير عمل، تارة من الله، وتارة من المجتمع الذي يعيش فيه أو من إنسان آخر مثله – ذاهباً في هذه مذهبه في تلك. وليس من المستبعد أن يكون مبدأ الوساطة المطلقة قائماً على مبدأ الإتكال المطلق، أي إن الحامل للإنسان على إتخاذ الوسطاء وطلبه أغراضه من طريقهم وبعونهم هو تمكن مبدأ الإتكال من نفسه ومن عقيدته وتربيته. فإن محاولة هؤلاء الضارعين إلى الوسطاء أن يدركوا كل ما يؤملون منهم هي محاولة إتكالية خالصة. ولا يمكن أن توجد إلا في بيئة الإتكاليين المسرفين في الإعتماد على الآخرين المسيئين للظن بأنفسهم وبقدرتها على أن تبلغهم ما يرجون. ولهذا فإنه لا يوجد أكسل ولا أعجز عن العمل وعن مصاولة الحياة من هذه المخلوقات العاكفة على أصنامها وأربابها، سواء أكانت هذه الأرباب والأصنام أمواتاً أم أحياء، وسواء أكانت حيوانات أم جمادات. وإذا أردنا أن ننقذ وننجو بها من كل ألوان هذا الضعف وجب علينا أن ننقذها من كل هذه المحاولات والإعتقادات العقيمة. فإن عوامل الضعف والسقوط في الأمم تتجاذب كالمادة نفسها. والعادة أن الضعف يولد ضعيفاً آخر، وأن الجهل يجر إلى جهل، والخطأ يجذب خطأ آخر، والمرض تكون إحدى مضاعفاته مرضاً، وهكذا، كما أن العكس أيضاً صحيح وأن القوة تولد القوة، والعلم يجر إلى علم، والصواب يجذب صواباً، والصحة تهب صحة.

* * *

نعم، التوكل جاء في أكثر سور القرآن مكرراً، وجاءت الأديان كلها آمرة به، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم. وليس الخلاف في حسنه ووجوبه ولكن في تفسيره ومعناه. فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذي قدمناه فكانت عاقبتهم وبيلة... أما معناه على حسب رأينا وعلى حسب الدلائل المختلفة فهو ما سنذكره:

إذا وكلت وكيلاً لينوب عنك في أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضاً مطلقاً واعتمدت عليه إعتماداً تاماً بلا شك منك ولا تردد في عمله، فمعنى هذا أنك معتقد

http://www.ittiqar.com

بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يضع من وسائل لإنجاح الغاية التي يراد إنجاحها، أعمال مؤدية إلى الغاية، وأسباب موصلة إلى المسببات، ووسائل مقربة إلى النتائج. وكلما ازددت إعتقاداً بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها إلى أهدافها ازددت عليه توكلاً وبوكالته غبطة، وازداد هو – أي وكيلك – رضاً عنك وسروراً بإيمانك بوكالته... وأما إذا شككت في الوسائل والأسباب والأعمال التي يؤديها، أو شككت في إيصالها إلى المطلوب فإن توكلك عليه يضعف، وإيمانك يهن، وإنه هو حينئذ يغضب من شكك ويساء من ريبك فيه وفيما يصنعه، فلا أنت حينئذ مؤمن به وبأنه الوكيل الناجح الجدير بالإعتماد والثقة، ولا هو راض عنك مسرور بإعتقادك فيه ونظرك إليه... وهكذا لننظر إلى التوكل على الله؛ فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة في أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل اتبلغهم غاياتهم هي أسباب ووسائل مؤدية إلى مسبباتها ونتائجها بلا تخلف... فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض – وهو سبب من الأسباب – مؤد بلا ريب إلى الشفاء، ووضع البذر الصحيح السليم في التربة السليمة الصالحة لإنبات ذلك البذر، مؤد بلا ريب إلى الإنبات، ثم إلى الإثمار إذا ما سقي وحفظ من الآفات، وإختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالأنوثة القادرة كذلك مؤد إلى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية، وسلوكك في الحياة سلوكاً سليماً من العثار والزلل مؤد بك إلى النجاح إلا أن يكون هنالك عقبة طبيعية. وهكذا القول في كل ما يدعى أسباباً ووسائل. فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب التي جدلها الله كذلك، ازددت توكلاً عليه وثقة به وبأعماله وتصديقاً بأخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها. وإذا شككت في الأسباب والطرق التي جعلها الله، وجوزت ألا توصل إلى شيء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين. ولا شك أنك إذا وكلت إلى مهندس تصميم منزل له، ووكلت إلى بناء القيام بذلك المنزل فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما، أما لو ارتبت فيهما وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت إليهما أمر منزلك ولما أمكن أن تكون متوكلاً عليهما، ولو جوزت ألا يكون البيت صالحاً في النهاية للسكن وجوزت أن يخر بعد الفراغ منه – إما لخطأ في هندسته وتصميمه وإما لضعف في مواد بنائه – لما عددت مؤمناً بهما

ولا متوكلاً عليهما ولا واكلاً إليهما الأمر وكالة صحيحة... فكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق، وجوزت أن تتخلف النتيجة وألا تكون الأسباب موصلة، لكنت من المرتابين في الله وفي أعماله وفي كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى ما لها من قيمة... فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود وأن تعتقد بأن الخالق، قد وضع له سنناً لا إضطراب فيها، ولا محاباة، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات.

أما غير المتوكلين حقاً فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من سنن الله، ولا بناموس من نواميسه، ويجوزون عليهما الإختلال والإختلاف، زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ولا حدود ولا رسوم يجريان عليها ولا يخرجان عنها... وإذن فهذه الأقوال التي حكيناها عن جماعات الصوفية والمتزهدين ليست بأقوال المتوكلين، وإنما هي أقوال الفوضويين الذين مس عقولهم وأفكارهم الإضطراب المستحكم، فظنوا الله كذلك فقدحوا فيه من حيث لا يشعرون، وخرجوا من كل أبواب التوكل وهم يحسبون أنهم المتوكلون. وقد قال عليه السلام (من استرقى أو اكتوى فقد برىء من التوكل) رواه الترمذي. وعن عمران ابن حصين قال: قال رسول الله (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب) قيل من هم يا رسول الله؟ قال (الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) رواه مسلم. وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية، فكان الإعتماد عليها والرجوع إليها رجوعاً إلى غير أسباب وإعتماداً على غير شيء، فكان ذلك منافياً للتوكل، كما ذكرنا هو الإيمان بالأسباب.

لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الإعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب، أو مع الإعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب. فإن هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها. ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدير وكالته على هذا النحو لكنت راجياً المحال والظلم، ولو أنه أدارها كذلك لكان ملوماً ظلوماً... ولكن التوكل هو الإيمان بقدرة الله وبعدله وبحكمته وبأخباره. فالإيمان بقدرته يوجب الإيمان بأن ما جعله سبباً لشيء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال، ولن يوصل إلى ذلك الشيء شيء آخر غيره، ويوجب الإيمان بأن ذلك الشيء الذي جعله مسبباً عنه لن يوصل إليه بدونه؛ فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد... والإيمان بعدله يوجب

http://www.ithar.com

الإيمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر إلى الأشياء التي لا تتصل بذلك، وبدون نظر إلى أديانهم ومذاهبهم. فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا، تلك هي العدالة الشاملة... والإيمان بحكمته يوجب الإيمان بهذا أيضاً، إذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس في الفوضى الإعتقادية والعملية. ولن ينجو بهم من هذه الفوضى إلا إيمانهم بالعدل المطلق والإرتباط بين الأسباب والمسببات. وكذلك الإيمان بأخباره، فإنه إذا أخبر أن شيئاً سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه.

ولا شك أن الإعتقاد بأن الله يدخل في الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها: فيجعلها حيناً أسباباً لأنه راض عن الآخذ بها، ويجعلها أحياناً أخرى غير أسباب لأنه غاضب على الآخذ بها، ويجعلها في يد فلان أسباباً وفي يد فلان ليست أسباباً، ويعطي أحياناً بها ويعطي أحياناً بدونها، وقد يمنع أحياناً أخرى بها، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله، ويأخذ بها إنسان آخر، ثم لا يبلغ شيئاً من آماله، وهكذا يتصرف نقضاً وبناء في نواميسه وخلائقه – على حسب رضاه وسخطه وحبه وكراهته وعلى حسب إختلاف الأديان والمذاهب، وعلى حسب تغير مشيئته – نعم، إن الإعتقاد بأن الله هكذا يصنع ينافي التوكل على كل إحتمال. وإن حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوي بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم، لأنها تفرق بينهم في الحب والبغض، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادىء والأشياء الأخرى – إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات، وهي حكومة لا يصح الإتكال عليها ولا الإعتماد على حكمها ولا الإيمان بحكمتها. فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة.

ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل فقال الرسول (ردوا على الرجل) فقال: (ماذا قلت؟) قال: قلت حسبي الله ونعم الوكيل، فقال عليه السلام (إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل.) وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله (إن الله يلوم على العجز فابذل من نفسك الجهد. فإن غلبت فقل توكلت على الله.) وعن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى النبي وترك ناقته على باب المسجد

فسأله الرسول عنها فقال أطلقتها وتوكلت على الله فقال عليه السلام (اعقلها وتوكل.)

فقول الرجل: حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته في القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلاً أنه يتصرف ويقضي على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم لا على مقتضى الأسباب والنواميس التي وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لا راد له. فأرشده مرشد الإنسانية إلى خطئه، وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيلاً أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا إنفكاك. فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الإلتفات إلى ذلك والأخذ به والإعتماد عليه. وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات محطماً الحواجز، خارقاً النواميس، متجاوزاً الحدود التي حدها هو.

وقوله عليه السلام (فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) معناه: إذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك إنما غلبت بالحق وبالقوانين التي لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها. وإذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وإن كان غلباً وهزيمة لأنه عدل، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضي وإن كان قضاؤه عليك لا لك، لأنه عادل غير محاب، ولأنه عالم غير جاهل، ووجب أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو إلى اللوم بعجز أو تقصير... وهذا بمثابة قولك: نعم القاضي هذا – مشيراً إلى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه إنما قضى بالحق.

وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت فإنه يذهب في هذا القول وهذا العمل إلى أن معنى التوكل هو الإستسلام وترك الحيطة والعقل، مؤملاً أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل، في يد أحدهما خطام، وفي يد الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب. فرد عليه الرسول هذا قائلاً: اعقلها وتوكل، مبيناً له أن الإتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الإعتماد عليها وعلى إنجاحها، لأنها من خلق الله ومن شرعه، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا إلى النجاح، ومبيناً له أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن وألا يخشى من وراء الأسباب جوراً وعدواناً، كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفي، من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو

http://www.ithar.com

يضيعها أو يحل عقالها كما يظن ضحايا الأرواح، أو كأن يصنع الله بناقته بعض الأشياء التي يزعمون أنه يصنعها – خروجاً على السنن والأسباب والعادات، بقصد الإمتحان أو الإبتلاء، أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدي كما يزعمون... وهذا ما يشير إليه قوله (وتوكل) أي اطمئن وثق بالنتيجة إذا ما أخذت بالحيطة الكاملة.

وإذا ما فهم التوكل كهذا الذي ذكرنا كان قوة من أعظم القوى، وكان مهماز يسوق الإنسانية أعنف سوق إلى العمل وإلى إفراغ الجهد كله، وكان قاطعاً لدابر الكسل والركود والإتكال، إنتظاراً لما وراء الأسباب، ولما في الغيب مما لن يجيء، ومما ليس في الحسبان... والتوكل بهذا المعنى هو روح الإنسانية ومتى زايلها فقد حانت وفاتها. وهو بهذا المعنى أيضاً روح الأديان وروح الإسلام. ولهذا جاء ذكره في أكثر سور القرآن مأموراً به ومخبراً عنه. وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التي قدمت للعرب مفاتيح البلدان، وأخضعت لهم الممالك، وقهرت بهم الأديان، ووضعت في أيديهم مقاليد الدنيا – الدنيا التي كانت تعوزها هذه الروح، والتي كانت إذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصوره المسلمون اليوم: الجمود والإستسلام ورجاء ما لا يكون.

الأسباب – أوهام الناس فيها
كيف يجب أن تفهم

اقصد إلى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإنماء وادفن فيها البذر الصحيح القوي في الوقت المناسب، ثم اسقها بالماء وفاق أصول الري العلمية الصحيحة، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة وكيف يجيء نباتها! إنها سوف تنبت وإن نباتها سوف يخرج جيداً إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية. فإذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قوياً صحيحاً فلا ريب في وجود مانع إما في الأرض، وإما في البذر، وإما في طريقة الري، وإما في المناخ، وإما في أحد الأشياء المعروفة... أما أن تجتمع هذه الأمور وتنتفي هذه الموانع ثم لا يخرج النبات – أو يخرج ولا يكون صحيحاً – فمحال.

ثم اقصد إلى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذراً، أو صالحة للإنبات ثم لا تسقها بعد وضع البذر فيها مع إمتناع الماء عنها، أو إلى أرض صالحة للإنبات واسقها بالماء راجياً أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الأرض مهما دعوت ورجوت. وهنا يورد قول الله: "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون."

أو اقصد إلى كائن حي وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التي لا تكون الحياة بدونه، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حياً، أو وفر لهذا الكائن الحي ما يلزم له من طعام وشراب وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حياً... والنتيجة لهذا أنه إذا وجدت الأسباب وافية وجدت المسببات وإلا فلا. غير أنه يجب أن يلاحظ أن الأسباب نوعان سلبي وإيجابي؛ فالإيجابي هو الذي يحصل الشيء ويترتب عليه، والسلبي هو الذي يزاوله يحصل الشيء. فإذا توفرت أسباب أمر واندفعت موانعه حصل ذلك الأمر، وإذا لم توجد أسبابه ووجدت موانعه، أو وجدت أسبابه وموانعه، أو لم توجد لا أسبابه ولا موانعه، لم يقع ذلك الأمر وقد دل على هذا كل أصناف الدلائل المعروفة عند البشر – هذه مقدمة نقول بعدها:

أساء المسلمون الظن بالأسباب وأكثروا من القول في تقليل قيمتها وأثرها بل

http://www.ithar.com

في تجريدها من كل قيمة وأثر، وملأوا الكتب والمنابر والنوادي والمجالس كتابة وخطابة بأن تحصيل السبب وافياً ليس معناه تحصيل المطلوب، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب فقد تأخذ بأسباب شيء أحسن أخذ ثم لا تنال غرضك، وقد تنال كل ما ترجو بدون أن تأخذ بسبب واحد من أسباب ذلك. وقد زعموا أن القول بذلك قول بعظمة الله وبقدرته الشاملة وتصرفه المطلق! وقد قالوا في تعريف الأسباب: "إنها الذي لا يلزم من وجودها الوجود ولا يلزم من عدمها العدم" أي لا يلزم من وجود الأسباب وجود مسبباتها، ولا يلزم من عدمها – أي عدم الأسباب – العدم – أي عدم المسببات.

وقد صار الناس في هذه المسألة طائفتين: إحداهما أكبر من الأخرى ضلالاً: طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة، وتنكر أن يكون لها شيء من الأثر، وتطعن في دين من يأخذ بها ومن يراها شيئاً... وزعماء هذه الطائفة كثيرون منهم الغزالي – على تناقض فيه – ومنهم ابن عطاء الله والحارث بن أسد المحاسبي. قال الغزالي في كتاب منهاج العابدين: "فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه، إذ هو من فعل الله للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه. وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة بالعبد إليه، وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمانه. وأما قوله "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله" فالمراد به العلم والثواب... فإن قيل لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلبها! قيل لا يلزم ذلك إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله يفعل بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب! ثم إن الله ضمن لك ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب قال: "وما من دابة في الأرض إلى على الله رزقها. ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه... فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه فلا يصح تكليفه... ثم إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً في الأكثر وتجردوا للعبادة، وبالإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله ولا عاصين له في ذلك. فتبين أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد"... انتهى. وقد كرر هذه المعاني في الإحياء وجاء فيه: أصاب الربيع فالج فقيل له لو تداويت! فقال لقد هممت ولكن ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وكان فيهم الأطباء فهلك المُداوي والمداوى. وذكر عن الإمام أحمد أنه أشار بترك

التداوي... وقد ساق هنا عدة أمور تصرف عن التداوي: أحدها أن يكون المريض من المكاشفين فيكاشف بأن أجله قد انتهى وأنه لا فائدة في العلاج وزالتداوي! قال: وذلك كان عنده معلوماً تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن، وتارة بكشف محقق!! ثم أورد أن سهلاً سئل عن الغذاء والقوت فقال لمن سأله: ما لك وللجسد؟ دع من تولاه أو لا يتولاه آخراً. إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه! أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت إلى صانعها حتى يصلحها!! وقال في فصل آخر من الإحياء: لقد أحسن الشاعر يوم أن قال:

جنون منك أن تسعى لرزق
ويرزق في غشاوته الجنين

قال وقال وهب: لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزق لظننت أني مشرك! وقال الجنيد: الحيلة ترك الحيلة – لما سئل عن طلب الرزق والعمل له. قال والإهتمام بالرزق قبيح يؤذي الدين وهو بالعلماء أقبح... وهذا النوع من الكلام كثير في الإحياء وغيره من كتب الغزالي وغير الغزالي.

أما ابن عطاء الله السكندري فقد ألف كتاباً في هذا سماه (التنوير في إسقاط التدبير.) وجملة هذا الكتاب هو ما جاء في أوله نقلاً عن الشاذلي: "إن كان ولا بد من التدبير فدبروا ألا تدبروا – وقوله – لا تختر من أمرك شيئاً واختر ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء."... وجاء في هذا الكتاب أن المدبر لنفسه مع الله يبني والله يهدم! ثم أورد قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

قال: والتدبير شجرة تسقي بسوء الظن بالله وثمرتها القطيعة عن الله، إذ لو أحسن العبد الظن بالله لماتت شجرة التدبير من قلبه لإنقطاع غذائها! وإنما كان ثمرتها القطيعة عن الله لأن من دبر لنفسه فقد اكتفى بعقله ورضي بتدبيره واحتال على وجوده، فعقوبته أن يحال عليه وأن يمنع واردات المنن أن تصل إليه... وهكذا ساق الكتاب.

وجاء في كتاب عوارف المعارف للسهروردي: قال حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الإهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقف متعجباً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشي

http://www.ithar.com

والرؤية، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض فخرج منها إناءات في أحدهما سمسم وفي الآخر ماء صاف، فأكلت وشربت ثم انشقت الأرض وغاب الإناءان. فلما رأى ذلك سقط من قلبه الإهتمام بالرزق! قال: فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام، يزيل عن باطنه الإهتمام، ويرى الدخول في التكسب والتسبب رتبة العوام، ويصير مسلوب الإختيار! قال وسئل التستري عن علم الحال قال: هو ترك التدبير! قال وقيل لأبي يزيد: ما نراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك؟ فقال: مولاي يرزق الكلب والخنزير أتراه لا يرزق أبا يزيد – إلى ألوان كثيرة في الكتاب... وقد قالوا في هذا المعنى قولهم المشهور:

لا تدبر لك أمراً
فأولو التدبير هلكى
سلم الأمر تجدنا
نحن أولى بك منكا

ومن الإغراق في الإغراب أنهم لم يجعلوا الأسباب غير مجدية فحسب بل زعموا – وقد أبدعوا في هذا الزعم – أن الأخذ بالأسباب مما يبعد الحاجات ومما يحرم منها وأنشدوا في هذا:

تجد الرزق الذي تطلبه
شبه الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلا
فإذا وليت عنه تبعك

فأنت إذا أردت الرزق وجب عليك أن تهرب منه. أما إذا كنت لا تريده فما عليك إلا أن تطلبه وأن تأخذ بأسبابه، فإنه حينئذ يمعن في الهرب منك، وإنك لن تدركه. وليس في الدنيا منطق أفسد ولا أعجب من هذا المنطق. ومن المؤلم أن أحد العلماء نسب هذا الشعر في كتاب له إلى المجاهد صلاح الدين الأيوبي.

أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنكر الأسباب جملة ولكنها جردتها من التأثير وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الإنسان، لأن الله أمر بتأديتها، أو لأن الطبيعة البشرية تطمئن بها وتستريح إليها، لا لأنها تؤثر أو توصل. وهنا تكلموا كثيراً وتكلم علماء الكلام الذين يسمون علماء التوحيد أكثر، وتركوا وراءهم ثروة هائلة ما أخلق وارثها بالفقر... وقد ذكروا في توجيه المسألة إحتمالين

كلاهما عندهم كفر: أحدهما الزعم أن الأشياء توصل إلى نتائجها بطبيعتها، وأن الأسباب تؤدي إلى مسبباتها بقوتها. وثانيهما: الزعم أنها علل تترتب عليها المعلولات. وكلا الأمرين عندهم كفر. فمن اعتقد بأن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروي كذلك، وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة، أو أن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل إلى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها، فهو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا! وقد نظموا هذا شعراً واستظهروه وأمروا بإستظهاره، فقالوا في إحدى المنظومات الإعتقادية التي تحفظ وتدرس:

ومن يقل بالطبع أو بالعله
فذاك كفر عند أهل الله

والمسألة إجماعية على حسب قول هذه العقيدة النظمية... ورأيهم في هذا الموضوع أن كل هذه الأشياء وكل ما يسمى في الدنيا وسيلة أو مؤثراً أو علة أو سبباً لا يعدو أن يكون مقارناً لفعل الله فقط. فالآلة الحادة لا تقطع ولكن الله يقطع عند الإهواء بها والنار لا تحرق ولكنه تعالى يحرق حين إتصالها بشيء يحترق، وهكذا يقولون في كل ما يتعاطاه الناس ويفعلونه. وقد أفسدوا على الناس بهذه الآراء حياتهم وأضاعوا عليهم كل ثقة بالأسباب، وصار العامة – بل والخاصة – لا يعقدون على سبب أملاً عقداً حقيقياً. وقد أثرت هذه الأقوال في أعمال الناس تأثيراً وقع بهم على الفشل والخيبة. ومن الملاحظ عليهم – وهذا أثر من آثار هذه الإعتقادات – أنهم لا يبنون أحكامهم على الأشياء ولا يتوقعون حدوث النتائج بناء على قوة الأسباب وضعفها، لأنها على حسب ما قيل لهم وحسب ما عتقدوا، قليلة القيمة ضئيلة الأثر... وقد كانت أحكامهم على هذه الحرب وعلى نتيجتها أحكاماً قائمة على أنهم لا يقيمون للأسباب وزناً؛ فهؤلاء سينتصرون وأولئك سينكسرون، أحكاماً صارمة قاطعة يطلقونها. فإذا قلت لهم: كيف، وأولئك الذين جعلتم نصيبهم من الحرب الإنكسار يملكون وسائل الإنتصار، وأولئك الذين جعلتم حظهم منها النصر فاقدون لآلاته وأسبابه، عجبوا منك ونظروا إليك نظرهم إلى من جعل مع الله شريكاً وحسبوك تتكلم بلسان الكافرين المارقين!! ومن الإغراب في الإغراب أن كثيرين منهم قد زعموا

http://www.ithar.com

أن نتيجة هذه الحرب قد تكون إنتصار المسلمين، وأن ثمرتها قد تخص أفواه الشرقيين! فإذا حاولت أن تقول لهم: وأين وسائل هذا عجبوا منك ومن وسائلك.

عقدة نفسية، ومشكلة إجتماعية، وشعب قست عليه الحياة بكل سلطانها يراد له أن يخرج من قسوتها، ولكن أشد جوانب هذه المشكلة أنه لا يدري ما سبيل الخروج ولا ما طريقه؛ صانع يراد له أن يتقن صناعته لأنها منحطة ولكن يمنع من إتقانها ومحاولة إتقانها أنه لا يدري أن الإتقان سبب للنجاح وللشهرة وسعة الرزق، وأن محاولة الإتقان تؤدي إلى الإتقان – وزارع جاهل في زراعته يراد له أن يسمو بها بكل وسائل السمو، ولكن يقعد به عن هذا الغرض أنه لا يعرف ولا يعترف بأن المسببات منوطة – وتاجر صغير في تجارته هابط بها يراد له أن يكون كبيراً وأن تكون هي كبيرة، ولكن يعجزه أنه لم يكن يدري أن لذلك أسباباً... وهكذا القول في كل إنسان من هذه الأمة فما وجه النجاة والخلاص؟ وجه هذا أن يعلّموا وأن يعلموا أن الله قد جعل الأمور هي كل شيء وأنه لم يجعل شيئاً بدون سبب، وأن المرء يتوصل بالأسباب إلى كل أموره ولا يتوصل بغيرها إلى شيء. فهي مؤثرة حقيقة، بل موجدة حقيقة إيجاداً جعله له في طبعها. وقد تقدم في صفة الرسول وصفة أبي بكر أنهما كانا يكسبان المعدوم أي بوحدته.

وقد ذكر الله في كتابه الأسباب في مقام من مقامات الثناء والإطراء حينما ذكر عبداً من عباده المصلحين الأقوياء وهو ذو القرنين فقال": إنا مكنا له في الأرض وهذه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً. "... فامتن عليه بأن آتاه من كل شيء سبباً ثم مضى عليه مرة أخرى بأن اتبع هو سبباً، ثم مرة ومرة: وقد أعقب الإخبار عن التمكين له في الأرض بالإخبار عن إيتائه كل الأسباب. فكأنه تعالى أراد أن يعلمنا أن التمكين له في الأرض كان نتيجة طبيعية لتجمع الأسباب كلها له. فمن ملك الأشباب فقد ملك الدنيا، ومن عجز عنها عجز عن كل شيء. وقد شاهدنا أن لكل ضرب من ضروب السيادة أسباباً خاصة: فأسباب السيادة على الممالك البعيدة البحرية هي الأساطيل المائية، وأسباب السيادة على السماء هي الأساطيل الجوية، وأسباب السيادة على البر هي القوات البرية... وذو القرنين لم يستطع أن يفتح مشارق الأرض ومغاربها وأن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها إلا بعد أن كانت لديه كل الوسائل لذلك. وقد أراد الله أن يدلنا بسياق هذه القصة على أن من طلب السيادة وليست لديه أسبابها فقد ذهب يطلب المحال، وطالب

المحال مذموم مدحور. ولو لم ينزل الله على المسلمين سوى هذه الآية "إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً" وعقلوها لكانت كافية وقاضية على كل ما كتبه الصوفية المعطلون للأسباب وللقوى. وما أروع قوله في هذه القصة "فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس"... الآيات، ثم قوله "ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس" الآية، ثم قوله "ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين"... الآيات. فإن في هذا التعليل الصريح على أن أتباع الأسباب هو الذي أبلغه ما بلغ وهو الذي وصله بأطراف الدنيا. فأين ما يزعمه المخذلون؟ وقد أراد الله أن يبين عن حالة قوم سقطوا على الهلاك وفقدوا كل أمل في النجاة فقال "وتقطعت بهم الأسباب." وكأن الآية تدل على أن من تقطعت به الأسباب وفاتته فهو الهالك لا محالة، والعكس كذلك. وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد في ذم الأسباب أو ذم الآخذين بها، بل كان التاريخ الإسلامي قبل أن يرتديه هؤلاء قائماً على الإعتراف بطبائع الأشياء، ولم ينكر طبيعة من طبائعها.

ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان: أحدهما أنهم حسبوا الإيمان بقدرة الله المطلقة في تصرفها وعملها ينافي الإيمان بالأسباب، وحسبوا أنهم إذا آمنوا بالسبب فقد قيدوا الله به وألزموه بألا يخرج عنه وألا يعمل بدونه! والله عندهم غير مقيد في فعل من أفعاله بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام.

وثانيهما أنهم وجدوا المسببات كثيراً ما تتخلف عن أسبابها، ووجدوا أن الإنسان قد يؤدي السبب على الوجه الأوفى الأكمل في ما يبدو ثم لا يصل به ذلك إلى غرض منشود، كما وجدوا أن العكس أيضاً صحيح، أي وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب... هذان الأمران هما من أعظم ما صار بالقوم هذا المصير في حكمهم على الأسباب وفي تراخيهم عند الأخذ بها وفي شكهم فيها – ذلك الحكم والتراخي والشك الذي جعلهم عاجزين عن الإتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة إلى مسبباتها... ومن أخذ بالسبب شاكاً فيه متراخياً في أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم، لأنه لن يتقنه ولن يثابر ويصابر عليه، ولن يبدع فيه. بل لا بد من الإيمان به مع الإصرار على هذا الإيمان وإلا فلا نجاح، ولا بد من الإتقان والمثابرة والمصابرة على العمل وإلا فلا أمل في فوز حقيقي، ولا بد من تقليب الرأي على كل وجوهه بحثاً عما يمكن أن يكون قد دق من خفي

http://www.iftar.com

الأسباب وضروب الوسائل.

وليس من ريب في أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لأنهم لا يجربون كل الأسباب والوسائل، بل إنهم إذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم، ولصقوا بالتراب والذل والمسكنة، حاسبين أنه لم يبق لهم مكان في هذا الوجود، وذهبوا يبكون أقدارهم وحظوظهم، ويلعنون أيامهم وأقوامهم... ولا شك أن نجاحهم كان مضموناً ومحققاً لو أنهم أعادوا الكرة، وأصروا على الوصول إلى الغاية، وجددوا في السبب والوسيلة أو كرروهما. ولا ريب أن من أخطأ الهدف في الرمية الأولى سيصيبه إذا كرر الرميات وعاودها مرات. ومن المعلوم أن بلوغ قصبة السبق لا يكون في الوثبة أو الخطوة الأولى، وإنما يكون في تكرير الخطوات والوثبات، وفي معاودة شد الأعصاب والعضلات... وهذان الأمران اللذان جعلا القوم لا يثقون بالسبب كما يجب أمران يلز النظر فيهما.

أما الإيمان بقدرة الله المطلقة من القيود والحدود فإنه يقتضي الإيمان بالسبب لا الكفر به، لأن الإيمان بالسبب هو في الواقع إيمان بمسببه وصاحبه، والكفر به كفر به... والشاكون في أسباب الله – وكل ما في هذي الدنيا هو من أسباب الله – هم في الحقيقة شاكون في الله وفي عمله، فإن هذا الشك معناه الشك في قدرته تعالى على أن يجعلها أسباباً موصلة مبلغة... وكلنا نؤمن بأن إمتثال أوامر الله الشرعية سبب في دخول الجنة وفي نيل رضا الله، وأنه سبب لا يتخلف عنه مسببه. ولم نقل غير ذلك لئلا نقيد الله ونقيد تصرفه وعمله وقوته... والتقيد بالكمال والخير والحكمة والعدل ليس قيداً إلا في لغة هؤلاء، وإن كان قيداً فليس ذماً وإنما هو غاية المدح... أما تخلف المسببات عن الأسباب فهذا ما لا يكون أبداً، ولكن قوماً يبذلون أسباباً ضعيفة ناقصة فلا يصلون إلى أهدافهم، فيتهمون الأسباب، والواقع أن الذنب ذنبهم. فكل سبب لا يوصل إلى الغرض المقصود به هو سبب ناقص ضعيف، وإذا تم السبب وجد المسبب لا محالة. ولا يقع شيء في هذه الدنيا إلا إذا اجتمعت أسبابه، وإذا اجتمعت أسبابه فلا بد من وقوعه على كل حال. ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فهو إنما يقع حيث تجتمع الأسباب – وهي إما الأمراض، وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه، أو لأمر

داهم مفاجيء معجز.

أما الآيات التي تنص على آجال الأفراد والأمم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها، فهي كذلك أيضاً، لأن حلول الأجل معناه إجتماع الأسباب، وإجتماع الأسباب معناه حلول الأجل. فمن صدمته سيارة صدمة قاتلة فقد حل أجله، وهي لم تصدمه لأن أجله حل ولكن أجله حل لأنها صدمته، وهكذا يقال في كل شيء فآجال الأفراد وآجال الأمم إنما تنتهي عندما تعجز عن البقاء وعن الحياة عجزاً ذاتياً أي من داخل ذاتها لا من خارجها، ولكنها لا تعجز لأنه وجب أن تنتهي كما يظن كثيرون من الناس.

وتغلط طوائف كثيرة إذا تكلمت في سقوط الأمم وفي نهوضها، إذ ترى أن أمة تسقط وأخرى تنهض لا لأسباب تقضي بالسقوط والنهوض، بل لأن الواجب أن تتناوب الأمم السلطان، وتتداول الأيام، وتتقاسم الحظوظ... وهذا بمثابة الإعتقاد أن آثاراً ومعلولات تحدث بدون علل ومؤثرات...

وآخرون يقولون: إن الأمم تشيخ كما تشيخ الأفراد – يعنون بهذا أن الأمة التي تنهض لا بد أن تسقط، أو لا يقال: كيف سقطت إذا سقطت، لأن سقوطها بعد نهوضها، وشيخوختها بعد شبابها أمران طبيعيان لا يسأل عن أسباب حدوثهما... وإذن فلا بد أن تسقط الأمة التي نهضت وأن تشيخ مهما استمسكت بأسباب نهوضها وشبابها، كما أن الفرد لا بد له من الشيخوخة ومن الموت مهما حاول المحافزة على حياته وشبابه... وكان الواجب على هؤلاء أن يتموا تمثيلهم بأن يقولوا: وإن الأمة إذا شاخت ماتت، وإذا ماتت لم تبعث إلى يوم الدين، كما هو شأن الأفراد، بل كان المنطق يقضي عليهم بأن يزعموا أن الإنسانية كلها تشيخ ثم تموت ثم لا تنتشر حتى يوم النشور. وكل هذي أوهام ليست في سبيل من العلم.

ولا توجد سنة تقضي بشيخوخة الأمم لا محالة. ولكنها تشيخ – أو تضعف وتنحل حينما تتخلى عن أسباب شبابها وعظمتها. ولو أنها بقيت سائرة في الطريق التي أفضت بها إلى الشباب وإلى العظمة لظلت أبداً عظيمة شابة.

وجاء في مطلع القصيدة المشهورة في بكاء الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

http://www.ithar.com

وفي قول آخر: (توقع زوالاً إذا قيل تم.) وهذا كله إنكار للأسباب وقول بأن الحوادث تقع بدون أن تكون لها علل! فإن تمام الشيء ليس سبباً في نقصانه، ولا علة من علل زواله، فكيف نتوقع الزوال أو النقصان حين التمام؟ بل إن أسباب الزوال والنقصان هي غير أسباب التمام، وهي مناقضة لها، وما كان سبباً لأحدهما لا يمكن أن يكون سبباً للآخر، فإذا ما أخذ شيء من الأشياء بأسباب الكمال فكمل ثم لم يحد عن هذه الأسباب، فلن نتوقع له زوالاً ولا نقصاناً إلا على رأي هؤلاء الهائمين في فيافي الأغاليط التاريخية الكبرى! فعند هؤلاء أن كل الأمم التاريخية العظيمة التي نهضت ثم سقطت لا يجب أن يلتمس لسقوطها علل ذاتية! وإنما النهوض نفسه هو السبب في السقوط، ولأن الله يتعابث بهذا العالم وبأممه دائماً؛ فإذا علت أمة أسقطها بنفس علوها وبأسباب علوها، لأنه تعالى قوي، والقوي من شأنه الإستبداد والتصرف الأخرق المتعابث، ولأنه غير عاجز، والعاجز هو الذي لا يستبد، بل يدع الأمور تسير في سبيلها! وقد نظموا هذه المعاني شعراً صاروا يتناقلونه على الألسنة عصوراً غير قصيرة:

واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد

وقد ذكروا أن هذا البيت هو أحد أسباب الإيقاع بالبرامكة لأن هارون الرشيد أقدم على الفتك بهم – لما أن سمع هذا الشعر – ليثبت أنه مستبد، وليثبت أنه غير عاجز، إذ العاجز هو من لا يستبد – أي إنه أخذهم بغير أسباب على قول هؤلاء الرواة إلا إذا كان مجرد الإستبداد سبباً من الأسباب... والعرب في الأندلس وغيرها لم ينحلوا ولم تهو شمسهم من أفقها لأسباب سوى أنهم قد تموا وكملوا في ضروب حياتهم ومجدهم، والتمام سبب للنقصان والزوال – والإنجليز وغيرهم من الشعوب الراسخة الأصول والفروع يجب أن يسقطوا ويزولوا، لأنهم قد تموا وأخذوا حظهم من السلطان والسيادة، ولكل شيء إذا ما تم نقصان!! وقد قال مرة واحد من هؤلاء الذين يتصورون الله بهذه الصفات والأخلاق: إن لم تهزم بريطانيا في هذه الحرب – والإشارة إلى الحرب المنتهية قريباً – كفرتُ بالله! فقيل له. ولماذا؟ قال لأن الله يقول "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فيجب أن تخرج الأيام من أيدي الإنجليز إلى غيرهم، ولأن الله يجب أن يسقطها لأنها قد سادت طويلاً وظلمت كثيراً! ولكنها قد خرجت – على رغمنا –

منتصرة. وما أظن صاحبنا قد كفر بالله! وما به حاجة إلى هذا الكفر، لأنه لم يؤمن بالله، وإنما آمن بقوة وهمية تحكم العالم بالجبروت والجبرية! وهذه القوة ليست هي الله العادل الحكيم الرحيم، الذي أخص أوصافه الحب والإحسان، لا البغض والعدوان. ومن تصور إلهه كذلك فلا محالة من أن تفسد أخلاقه وطباعه وتصوره للعدل والحياة وكل شيء!!

وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة – وهي فكرة إنكار الأسباب، أو التهوين من شأنها، أو الإعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها. وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من كل هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها.

ويحسب بعض الناس – وقد تورعنا عن أن نقول: كلهم – أن أمثال قول الله: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" يدل على ضعف أمر الأسباب، وعلى أن الأخذ بالحيطة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئاً ولا يرد آتياً، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا – مقدرة لهم ومقدرين – لا محالة ولو لزموا البيوت المشيدة... والواقع أن الآية تعطي عكس ما فهم الناس منها لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضي عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه، وهذا صحيح على حسب المعروف المشهود، ولكنها لم تنف أن البقاء في البروج المشيدة يطيل الأعمال ويمد من أسباب الحياة، وأن الذي يذهب إلى الميدان قد يهلك ويقتل، وأن الذي يهاب ويلزم منزله قد يسلم وينجو. وهذه الآية في معنى قول القائل:

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جباناً

والقصد من هذا أن الحر الكريم يجب أن يخرج إلى الموت، ويثب إلى الأخطار في أماكنها، لأن الدين أو الوطنية أو الحرية أو غير ذلك من معاني وفضائل الإنسانية توجب هذا الخروج والوثوب. ولا يصح أن يفر ويجبن ويعيش ذليلاً مظلوماً مهيناً، فإن ذلك لن يهبه الخلود. فالموت في مواطن العز والكرامة ألذ في أفواه الأحرار من الحياة الطويلة المذلة إلا عند من مرضت فيهم معاني العظمة وغرائز الإباء لطول الإلف وكثرة المقارفة.

أما قوله تعالى: "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى

http://www.ithar.com

مضاجعهم"... فالمعنى فيه أن هنالك أقواماً من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفي قومهم، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أي حال! حتى ولو كان في هذا الخروج الهلاك المحقق، إذا ما أهاب بهم داعي المجد – وإن لم يدعهم الرسول وأصحابه إلى ذلك، كما هو الشأن في كل الأمم، وكما هو الشأن في الجاهلية وفي الإسلام... وحكم هذي الظروف عليهم، المحفوفة بالأخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم، ومعنى بروزهم إلى مضاجعهم! وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوماً معينين بالخروج، لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل! ولنُعد فهمنا للأشياء كلها من جديد.

ومما يجب فهمه أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالأسباب في هذه المسألة إيماناً عميقاً، وقد حكى القرآن عنهم قولهم: "يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا"، يعنون أن الأمر لو كان أمرهم – أو لو كانوا مطاعين – لنهوا عن الخروج إلى القتال، ولما عرضوا أنفسهم على الموت، ولنجوا حينئذ، لأن القتل إنما يقع بالتعرض له ولأسبابه. وفي آية أخرى: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا"، وفي آية أخرى: "الذين قالوا لإخوانهم – وقعدوا – لو أطاعونا ما قتلوا." فهم إذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة، إيماناً برهانه طول التجربة وصدق الإستقراء؛ فالذين يضربون في وجوه الأرض وعلى متونها، والذين يخرجون غزاة مقاتلين يموتون ويقتلون بأسبابهم وبمساعيهم، والذين يقعدون ويحيدون عن مساقط الردي ينجون ويسلمون. فالمسألة – نجاة وهلاكاً – مقدرة بأسبابها ووسائلها كسائر مسائل الحياة. ولم يترد العرب في الهوة التي تردى بها الآخرون والمتأخرون، من الصوفية وسواهم، ممن باءوا بالفشل، وهوّموا بالجهالة طويلاً، فزعموا أن الموت والحياة ليسا بأسبابهما، وإنما هما مقدران بأوقات مضروبة محدودة، بحيث لا يفيد الفرار ولا يضر الإقدام في سلامة ولا في هلاك! ولهذا فقد نقل شيوخ هؤلاء عن آخرين منهم بأنهم كانوا ينامون بين الصفين المتقاتلين والسهام والنبال تتساقط من ها هنا وها هنا – إمعاناً منهم في إنكار الأسباب وفي أن الحيطة والحذر لا يجديان! وقد سبق أن قلنا: إن الأمة التي لا تؤمن بالأسباب إيماناً صحيحاً لا

يمكن أن تكون أمة عزيزة ولا عاملة ولا منتجة. والعرب في جاهليتهم استطاعوا أن يساحلوا تجاه تلك الجراثيم الإعتقادية المنتشرة التي كان يموج بها الشرق في ذلك العهد، فلم يجدوا من أجل هذا – حينما وجهوا التوجيه السليم – ما يمنعهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأعملها.

وحقاً إن طبيعة بلاد العرب لتوحي بالإيمان بالسببية الصارمة القاسية، فليس فيها شيء يؤخذ بالمجان ولا بالسهولة واليسر، بل كل ما هناك لا يستطاع نيله إلا بالأعمال العنيفة المرهقة، وبالأسباب القوية المحكمة – فلا مجان ولا سهل، ولا عطاء بدون ثمن. فليست هنالك أنهار، ولا أمطار غريزة، ولا غابات، ولا مراع لها قيمة كبرى، ولا شيء من هذه الأشياء التي يأخذها كثير من الشعوب بالمجانية – ثم ليست ثمة مناطق زلازل، ولا براكين، ولا مفاجآت طبيعية تفضي إلى الإيمان عند بعض الناس بأن وراء الأسباب والظواهر قوى خفية باطشة، تسيطر عليها وتقف في سبيلها.

إن العربي هناك ليرى الريح الملقحة بالبخار تهب على سمائه الصافية، فتنعقد السحابة الثقيلة المتراكمة، فلا تلبث أن تتهاوى وابلاً مدراراً على أرضه الجديبة اليابسة العابسة، فتوجد الحياة ويوجد الأحياء، ثم يكر الجدب والشمس المحرقة على تلك الأرض الخضراء المعشوشبة، فإذا كل شيء يابس عابس هامد! وهكذا تكرر العمليات أمام بصره وبصيرته – ما بقي – بلا إختلال ولا إختلاف، وبلا تدخل قوة ولا قوى في هذا! فأين ما لا سبب له! وأين السبب بدون مسببه!! وهكذا يرى ويعلم كل شيء حوله مضبوطاً محكوماً بهذه السنة وبالأسباب الآلية، ضبطاً لا أمل في إضطرابه ولا في تغييره: هكذا الشمس طالعة غاربة، وهكذا القمر زائداً وناقصاً، وهكذا الكواكب والنجوم كلها، وهكذا الحرارة والبرودة، والصيف والشتاء، وهكذا كل ما يشاهد ويعلم. إن له لمئات الآلهة العزيزة، الصغيرة والكبيرة، وإن له لعشرات الأرباب المطيفة بالكعبة، المحتضنة لبيته المقدس، وإنه طالما دعا هذه الآلهة والأرباب، وطالما تمنى عليها أن تصير بلاده الجديبة الحبيبة المقدسة – موطن الآلهة المقدسين – مثل السهول التي يعرفها، والتي رآها في الشام والعراق ومصر – تلك التي تفيض بالنماء والماء والبركات والخيرات، وبالأنهار والجداول، ولكنها لم تفعل ذلك، وإنه يعلم أنه ليس في الإمكان أن تفعله، لأن كل شيء مضبوط بأسبابه محكوم بسننه. إنه

http://www.ittar.com

ليدرك أن هذه الآلهة يعجبها ويرضيها أن يكون واديها ووادي عبادها العاكفين عليها لا يقل عن غوطة دمشق وسهول حلب ووادي النيل وضفاف دجلة والفرات بركة وفيئاً وزروعاً وخيرات، ولكن ذلك لم يحصل، لأنه لا يمكن أن يحصل، وليس في قدرة الآلهة مجتمعة متعاونة أن تصنعه.

إن أحد هؤلاء ليخرج في جمرة الصيف، فتلفحه الشمس، ويأكل كبده الظمأ، فتستبد به الآمال والأماني، فيأمل أن ينشق ما تحت قدميه عن نهر جار، أو أن تنعقد فوق رأسه سحابة لتنصب في فمه المحرور اللاهث، فيذهب يطوف بآماله هذه – في تلك الساعة القاتلة – على جميع آلهته وأربابه، راجياً منها أن تصنع شيئاً يبقي عليه حياته، ويذهب عنه بعذابه! ولكن أين هي، وأين هو مما يريد ويرجو! إنه المحال الذي لا يكون! فأين الخروج إذن عن الأسباب، وأين ما لا أسباب له!؟

إذن فكل شيء قائم على أسبابه الطبيعية وعلله الحاكمة المحكومة، وإذن لا بد من الإيمان بالأسباب، وإذن فالعربي تلهمه طبيعة بلاده الرتيبة الدائمة هذه الحقيقة، ومن هنا كانت قريش ومن جاورها أمة سببية، وكانت من أجل هذا أمة عاملة منتجة غالبة في وقت من الأوقات! فلما قلت ثقتها بالسببية، وضعف إيمانها بالسبب صار أبناؤها وورثتها ينتظرون الحجاج ليهبوهم الحياة والبقاء قطرات مرة المذاق!

ويجب أن يعلم أن القرآن يوم أن حكى هذه الآراء والأقوال عن العرب لم يرد بحكايتها الإنكار والرد، وإنما أراد أن ينكر عليهم النتيجة التي أرادوا أن يخرجوا بها منها. فهم – لأنهم كانوا غير مؤمنين بالرسول ولا بدعوته – كانوا يعملون على تخذيل من يريدون القتال معه، فيقولون إن هؤلاء الذين يخرجون معه يهلكون أنفسهم بخروجهم، ولو أنهم أطاعونا فلم يخرجوا ولم يقاتلوا ولزموا منازلهم، لما ماتوا ولما قتلوا، وهم – طبعاً – يعنون القتل والموت الناجزين. وعلى هذا فمن الجنون بيع النفوس بيع السماح بدون فائدة ترجى، وأية فائدة لهم في ذلك ما داموا غير مؤمنين؟ فرد عليهم القرآن ردوداً مختلفة، منها قوله: "ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون" يريد أنه لا يصح أن يمتنع العاقل عن التضحية مع عظم الجزاء، فإن الدنيا كلها، وأمور الناس كلهم قائمة على التضحية. ومنها أن الموت لا بد منه، وإذا كان ذلك كذلك

فمن الجنون والغبن الفاضح أن يعيش المرء ذليلاً مهيناً، وأن يرفض الجزاء المعروض السخي، إبقاء على شيء لن يبقى، وإستمساكاً بأمر لا يمكن الإستمساك به تخليداً. ومنها أن الجبانة والخوف والفرار من الأعداء قد يكون من أسباب الهلاك، وأن الإقدام ومنازلة الحمام والزحف إلى الأخطار والأهوال قد يكون من وسائل النجاة. وهذا معروف مشاهد، فإن من يستسلم ويفر من كل هول يعترض طريقه يركبه الأعداء ويلهج بتحديه الزمن، ومن يناضل ويقاوم يرهب فيسلم ويعز جانبه. وهكذا كان شأن القرآن معهم، يسلم لهم الدعوى أحياناً – إذا كانت صادقة – ولكنه يكر عليهم وعليها برد النتيجة التي كانوا يرمون إليها – إذا كانت باطلة. وهم ما كانوا يجهلون هذه الأمور، بل هي لديهم من المقدمات المسلمة، ولكنهم إنما كانوا يشاغبون، لأنهم يقصدون التخذيل والتعويق، لأنهم كانوا غير مؤمنين برسولهم... وفهم كل شيء على وجهه الصحيح ضروري، وإلا فلن نبلغ هذه الحياة التي نرنو إليها بعيون حسرى كليلة.

يصادفك، وأنت تسير في الأحياء الوطنية. الحين بعد الأحيان، هذان البيتان من الشعر الركيك، مكتوبين على المتاجر والمصانع:

ملك الملوك إذا وهب
لا تسألن عن السبب
فالله يعطي من يشاء
فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة؛ وكلهم يشتركون في هذه العقيدة، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه. فالله إذا أعطى أحداً مالاً أو جاهاً أو مجداً أو نجاحاً لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها، لأن الله – وهو ملك الملوك – لا يعطي على السبب ولا على قدر السبب، وإنما يعطي على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها! فالسؤال عن ذلك إذن خروج على الأدب وضلال في جانب الله، لأنه إعتقاد بأنه تعالى إنما يهب جزاء ومكافأة، وبقيود وحدود وأسباب، لا مشيئة وقدرة وإرادة وإطلاقاً! وهذا إتهام لذاته وصفاته وأفعاله! والأدب هو الإعتقاد بأن الأسباب لا شأن لها في نجاح ولا في إخفاق؛ فإذا رأينا ناجحاً لم يجز الإعتقاد بأن لنجاحه أسباباً وموازين وعللاً

http://www.ithar.com

تدرس وتفهم وتحتذى ويقاس عليها، وإذا وجدنا مخفقاً فكذلك لم يجز التعليل والتسبيب!! وهذا من شر ما تبتلي الأفراد والجماعات بالإيمان به. ولا ريب في أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر – في دلالتهما ونتيجتهما – من مئات الجيوش الغازية التي تحتل البلاد إغتصاباً وإقتداراً. ولا يستطيع أن يدرك هذا إدراكاً صحيحاً إلا من علم أن أساس كل شيء في هذه الحياة هو الفكرة وأن من سمت فكرته سمت حياته وأعماله، وأن من ضلت أفكاره وهبطت وانحرفت فلن يسمو في شيء.

أمامنا لا وراءنا

لا يأتي إلا والذي بعده شر منه.

«زعموه حديثاً نبوياً»

أمس خير من اليوم، واليوم خير من غد، وهكذا حتى قيام الساعة.

«زعموه من كلام ابن مسعود»

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس إلى شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

«زعموه أيضاً حديثاً»

كل شيء ينقص إلا الشر فإنه يزيد.

«حديث أيضاً على ما زعموا»

وكل خير في إتباع من سلف
وكل شر في إتباع من خلف

«كتب العقائد المقررة»

* * *

من الحقائق التي ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله – حيوانه ونباته وجماده – لم يزل دارجاً في طريق التطور، متنقلاً من طور إلى طول أفضل ومن حالة إلى حالة هي أدنى إلى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف. وعند العلماء أن شيئاً من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة، ولا بحالة فيها الإستعداد للرجوع إلى الوراء ولا للإنتقال من الكمال إلى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد وجوداً بدائياً، وأنه قد ظل يتنقل من وجود إلى وجود ومن شكل إلى شكل وأنه قد ظل في عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التي تصلح لوجود الحياة فيه... علم الكون – أول

http://www.ithar.com

ما علم – في حالة غازية منتشرة في الفضاء إنتشاراً متناسباً متسقاً مثل أن تبخر مقداراً من الماء في غرفة تساوى فيها ضغط الهواء، أو مثل أن تنثر مقداراً من الدقائق في مكان نثراً متساوياً. وقد بقي كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية إلى حالة التكتل والتقلص، فأصبح كتلة واحدة هائلة، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع. فبقي على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين، وهو يتفاعل في حقيقته تفاعلاً مستمراً إستعداداً للإنتقال إلى وجود آخر أفضل وأكمل. وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود في ذرته إنفجاراً فجائياً في الظاهر موقتاً معلوماً مقدوراً في الباطن، مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة. فتطايرت منه الدقائق والذرات تطايراً قائماً على الحساب الدقيق، فتفرق في الفضاء كتلاً هائلة غازية فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتتجمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين، حتى أصبحت نجوماً وشموساً، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه بالإستعداد المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع، ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن إحدى رعاياها... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضاً وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون – أي الأقمار – من حولها كما كانت هي من حول شمسها. وهذه العمليات الإنفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والإنقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعاً لسنة هذا الوجود. والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة والنواميس التي تحكمها – أي تحكم الكائنات الحية – إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة الجامدة. فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحي وفي الجماد.

وبعد هذا التوزع وهذه الإنقسامات في ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شيء منه صالحاً للحياة أو للإستقرار، بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الأرض – وهي منفصلة عنها – بنحو خمسة ملايين مليون سنة،

وقدروا عمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة، وأن الحياة لم توجد فيها إلى من نحو ثلاثمائة مليون سنة، أي إنها ظلت حوالي ألف وسبعمائة مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وقدروا عمر الإنسان في الأرض بثلاثمائة ألف سنة – وهذا إحدى التقديرات كما هو معلوم ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الإنسان الذي هو أرقى الموجودات فيها، أي إنها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تتهيأ لوجود حياة الإنسان المعدود كائناً راقياً. وما من شيء في هذا الوجود وصل إلى حالته التي هو عليها إلا بعد أن سلك هذه السبيل – سبيل التطور المنظم البطيء؛ فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق... وهذه الأرض التي نعيش عليها ونجد فيها كل ما تحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور؟ إنه لولاه لما وُجدت ولما وجد فيها ما وجد، ولما صلحت لظهور الحياة عليها، ولما وُجدنا فيها، ولو وجدنا لما بقينا أحياء، ولو بقينا أحياء لما وجدنا ما نحتاج إليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا... إنه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهودها الجليدية، وعن عهودها النارية إلى عهد الإعتدال الذي تبقى معه حياة النبات والحيوان الذي منه الإنسان وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت وارتفعت فيها الجبال، ونهضت الآكام، ووجدت السهول والسهوب والأودية، وانشقت الأنهار، وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التي عليها نحيا. وبهذا التطور أيضاً وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة، ووجدت التربة الخصبة التي تنبت لنا كل ما نشاء، ووجدت كل هذه العناصر التي لا بد منها لبناء أجسامنا ولإخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعياً وطبيعياً... إن أنفس شيء لدينا، كاللآلىء، مثلاً، لا يمكن الحصول عليه لولا خضوعه لهذه العملية.

إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالإستغلال وحتى نسرف في إمتصاصها وإمتصاص قواها إلى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منها، وإلى أن تكاد تضعف عن القيام بوظيفتها – كما يفعل أحدنا إذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة. فنتركها – لا نعطيها ولا نأخذ منها – ثم نرجع إليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان، فإذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطي بسخاء، فكيف

http://www.imar.com

حصل هذا؟ إن يد التطور ويد الإستعداد للنمو والتحسن قد امتدت إلى هذه الأرض فرجعت إليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها.

إننا نعمد إلى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية، ولكن نرجع إليها بعد مدة فنجدها قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى. فلماذا هذا؟ إنه الإستعداد الطبيعي للتطور، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء.

إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياماً منظماً، ولولاها لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة. فكل ما يحدث مما يجدد الصور والمظاهر والألوان، ومما يعيد ما فقد، ما هو إلا تطور وقيام بعمليته... إن دفن الحبة في التراب أو ركز الغصن فيه ثم خروج تلك الحبة أو ذاك الغصن وإرتفاعه في الفضاء، ثم تقسمه إلى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور وإمتداد لهذه الألوان، وتعبير قوي عن هذا السر الكامن، وتدليل عملي على أن كل ما في هذا الوجود يحمل في ثناياه وطبيعته القدرة على التحسن والتقدم... لقد ثبت أن كل شيء في الحياة يتحسن إذا لم يوجد ما يعوقه، وأن طبيعة كل شيء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب – وثبت أن الأحياء الثلاثة – كما ثبت ذلك للجماد – في عملية متواصلة في سبيل التحسن والتحسين.

أما الإنسان فليس هنالك شك في أنه كان منذ ثلاثمائة سنة – دع أكثر من ذلك – أضعف منه اليوم أجساماً وعقولاً ومعارف. وليس هناك من يرتاب في أنه في هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة، ومن ناحية التفكير، ومن ناحية القوة البدنية تحسناً عظيماً. وليس تطور الحضارة إلا تعبيراً عن تطور الإنسانية. فلو أن الإنسان لا يتطور في وجوده العام لما أمكن أن تطور حضارته. وليس ثمة شيء في الحياة يرجع إلى الوراء ويتقدم القهقرى، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقاً واحدة تؤدي به إلى الأمام وإلى الأمام دائماً... وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضاً نصوص الدين، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخاناً كما قال في الآية السابقة" ثم استوى إلى السماء وهي دخان. "ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس والسيارات والأرض وكل شيء فيها. وجاء في النصوص أن الوجود كله في تغير وتغيير مستمرين في طريق الكمال. وفي الكتاب الكريم "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات." وهذا يوم القيامة. ومعلوم أنها يوم القيامة تأخذ شكلاً ووجوداً أحسن وأكمل من شكلها

ووجودها الأول، والآية مسوقة لهذا الغرض. وآيات القرآن التي تعرضت لتغيير العالم ولتغيير السماوات والأرض تدل كلها على أن العملية عملية تغيير إلى أحسن وأفضل. والعالم الأخروي بمن فيه؛ على حسب ما جاء في النصوص، ليس إلا برهاناً على الوصول إلى طور الكمال الوجودي في كل وجه من وجوه الكمال والوجود. وفي الكتاب" ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً. "وليس من اللازم أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ في تفسير الأطوار، وإنما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعاني.

أما الشيخوخة والموت – اللذان قد يحسبان من الرجوع بالوجود إلى الوراء – فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بإنقضاء دور من الأدوار التي تقوم المادة والعالم كله دائماً بتمثيلها لتأخذا بتمثيل دول آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة. فإن العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة العرض، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه. وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدها مقصودة، لأنها متممة للأغراض العامة التي رمى إليها بها. وليس في فصل من فصولها، ولا في مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلاً على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة.

والإنسان في هذه الحياة – كغيره من الأشياء – وجد ليؤدي رسالة الحياة، ثم ليسلمها بعد إنتهاء دوره إلى إنسان آخر، ثم ذلك الإنسان الآخر يقوم بالرسالة نفسها وبالدور عينه. وهذا لتبقى السلسلة متواصلة، لتبلغ الغرض الأعلى المطلوب. ومن أدى رسالته ثم تنحى عن الطريق، أو من قام بدوره ثم اعتزل ليقوم الآخر بدوره لا يقال إن ذلك دليل على الرجوع إلى الوراء، أو على أن جملة القائمين بهذه الأدوار، متعاقبين متناوبين، يرجعون القهقرى... إن الزرع والنبات إذا أخذ في النمو، ثم في الإكتمال، ثم في النضج والإستواء، ثم في الإنتهاء لم يعد ذلك ضرباً من ضروب التأخر والرجوع، وإنما يعد ضرباً من ضروب السير إلى الأمام وضروب الإستمرار في أداء الرسالة العامة ومن إعطاء الثمرة في الأوان المضروب. والشيخوخة ثم الموت لا يعدوان أن يشبها الإستواء والنضج في النباتات ثم الحصاد. وهما – الشيخوخة والموت – مثلان من أمثلة الهدم والبناء، أو الهدم من أجل البناء. والهدم في أحيان كثيرة غرض من أغراض

http://www.ittar.com

البناء. والبناء الذي يعقب الهدم ليس إلا سيراً في السبيل، وإتماماً للرسالة، وبرهاناً من براهين الإستمرار في العمل. والإستمرار في العمل بدون إنقطاع دليل على أن الغاية التي يراد بلوغها لم تبلغ بعد، وهذا معناه السير إلى الأمام لا إلى الوراء.

إن عجز الأحياء – ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان والنبات – عن الإمتداد في الحياة وعمليتها بدون إنقضاء، هو بمثابة الحجة على أن المادة التي ألفت منها أجسام هذه الأحياء، وبنيت منها أعضاؤها، وشيدت عليها دقائقها مادة لم تكمل الكمال الذي يعطيها قوة البقاء في صورها ومظاهرها. ولكن ليس معنى هذا أنها ليست سائرة الى هذا الكمال وبالغته في أحد الأوقات. ونحن إذا رأينا آلة من الآلات تقوم بعملها ثم يبادر إليها العطب أدركنا من غير تردد أن مادة بنائها مادة رديئة ضعيفة، أو أن صناعتها رديئة ضعيفة، أو أن طريقة إستعمالها طريقة مخربة، وأدركنا أنه إذا عولجت الأمور الثلاثة وجاءت وفاق الغرض أصبحت الآلة قادرة على الإستمرار في عملها. ومبادرة العطب إلى آلة من الآلات لا يمكن أن يتخذ دليلاً على أن المادة التي صنعت منها آخذة في سبيل الإنهيار أو سبيل العجز والتخلي عن حقيقتها وطاقتها، وإنما يجب أن يتخذ ذلك دليلاً على أحد الأمور الثلاثة المذكورة. والإنسان – بل وسائر الأحياء – حكمه حكم هذه الآلة: فموته وعجزه عن الإمتداد في الحياة الفتية القوية دليل على أن مادة بنائه لم تبلغ الحد الذي يستطيع به الإستمرار في عملية الحياة بدون فساد أو ضعف، أو دليل على أنه لم يوصل إلى إستعمال الحياة فيه إستعمالاً يمنحها البقاء والقوة المستمرة المتجددة كإستمرار حياة الشمس وتجددها وبقائها مع عظم ما تنفقه وتبذله في سبيل وجودها. وقد ذكر العلماء أن الشمس تشع يومياً ثلاثمائة وستين ألف مليون طن منذ وجدت شمساً مشرقة، وقد وجدت كذلك منذ خمسة ملايين مليون سنة. ومع إنفاقها هذه المقادير الهائلة في هذه الأحقاب المتطاولة من أصلها ومادتها لم يلاحظ عليها نقص، على ما ذكر العلماء. وإن شاء الله سيبلغ الأتقياء الأبرار في دار الخلد تلك المرتبة من الوجود التي في قوتها الإستمرار في البقاء وفي الحياة الفتية المتجددة. وهذا معناه بلوغ الكمال المنشود المفقود الآن. فالموت إذن ليس بالأمر الذي يجب أن نفزع منه وأن نخشاه وأن يروعنا مرآه، فإنه كما ذكر ليس إلا ترك صورة لأخذ صورة أخرى، وترك لون

من ألوان الوجود من أجل أخذ لون آخر من هذه الألوان الزاهية المتعاقبة. وكما لا يجب الفزع من غروب الشمس وغروب غيرها، ولا من طلوعها وإعتدالها، ولا من ميلها، ولا من الخسوف والكسوف – أو كما لا يجب الفزع من إجتماع السحاب ثم إفتراقه، ومن إشتعال النار ثم إنطفائها، ولا من إيراق الأشجار وإكتسائها بالأوراق والأفنان ثم تجردها من ذلك، ولا من نضج المزروعات والثمار، ولا من مظهر من هذه المظاهر، فكذلك لا يجب الفزع من الموت؛ فما هو إلا ظاهرة من هذه الظواهر التي نراها كل وقت ثم لا تحدث لدينا فزعاً ولا روعاً. وكما أن الشمس تبدو من جهة في وقت ثم تختفي من جهة أخرى في وقت آخر بدون أن يوجد ذلك لنا هلعاً ولا إنكاراً، فكذلك كان الواجب ألا يحدث عندنا خروج أحدنا في وقت من طريق ثم إختفاؤه في وقت آخر من طريق آخر هذا الهلع والإنكار اللذين يستبدان بنا عند مشاهدة ظاهرة الموت. ولكن يظهر أن الإنسان لأسباب متعددة قد أفسدت عليه أكثر نظراته إلى الوجود، وأن عوامل التضليل كانت مسلطة عليه منذ وجد، وأنه لم يستطع حتى اليوم أن ينجو منها كما يجب أن ينجو. ولكن لا شك في أن الإنسان سيبلغ في يوم ما الغاية المقدورة له من حيث نضج الأفكار والرشد العقلي... فالموت إذن، وكذا الشيخوخة، ليسا من مظاهر الرجوع بالوجود إلى وراء. وإذن فلا يوجد شيء في هذا العالم يعود القهقرى، أو شيء لازم مكانه بحيث لا يتقدم ولا يتأخر، بل كل شيء دائب في طريقه الطويل بلا حيدة أو وقوف.

* * *

أما هؤلاء الذين قلّدوا الزعامة الدينية، واختيروا لقيادة الفكر الإسلامي في أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهني وموجة من موجات العماية الأصيلة، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد، فقاموا – وهم يترنحون من الغباوة ويتمايلون على أنغام الشيطان – ليوقعوا على أكذوبة علمية من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية في التاريخ... فقد زعم هؤلاء – بين هتاف الغباء المتواصل – في كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الإنسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه أبداً، وأن يرجع القهقرى وينكص إلى الوراء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق

http://www.ithar.com

وبالعدالة وبالنظام الإجتماعي المبرأ من العيوب والنقائص... وزعموا أن كل خير هو في أعمال الماضين، وكل شر هو في أعمال المتأخرين، وأن كل خير في إتباع من سلف، وكل شر في إتباع من خلف، وأن كل ما يمكن تصوره من الخير فقد مضى، وكل ما يمكن تصوره من الشر فقد بقي، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد، وأنه إذا كان خيراً وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الأواخر... إذ قد ادعوا أن الإنسان في كل نواحيه، العقلية والعلمية والخلقية والجسمية، قد أخذ حظه من الكمال في الزمان الأول، ثم عاد يتناقص وراح ينحدر مسرعاً في سلم الرذيلة والجهل والإنحطاط والضعف في كل شيء، وأنه لا يمكن أن يتوقف عن إنحداره حتى يقضي عليه القضاء الأبدي الأخير... وادعوا إجمالاً أن الإنسانية – بل الخليقة كلها – تنزل ولا تعلو، وتتأخر ولا تتقدم، وتفسد ولا تصلح، وأن الخير من أجل ذلك – الخير الذي لا خير سواه – هو في الإستمساك بخيوط الماضي والإرتماء في أحضانه والإغماض عن الحاضر والآتي والقنوط منهما، ثم تثبيت الأبصار والبصائر والآمال فيما سلف وفيمن سلفوا للتقليد والإتباع، لا للتفكير والإعتبار... وقد حاولوا – والبلاهة تحدو لهم – أن يعززوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى أصحابه وإلى الأئمة المقلدين، وجدوا في نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفي ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقي عليها وينضوي إليها أربعمائة مليون من الأجناس المختلفة، المتباينة، الآخذة بأعظم دين جاء لإيجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقي المستمر. وقد استسلم لهذه الثقافة أو لهذه الخرافة كل الطوائف؛ فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها في شعرهم وأدبهم وتاريخهم، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام في الدين أو في الأخلاق أو في الوعظ. وقد غبروا زماناً قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون في تركيزها في النفوس وفي المعتقدات، حتى قام عليها من الإجماع بين الخواص والعوام ما لم يقم على قضية أخرى، وحتى أصبح إعتقادها والتصديق بصدقها مما يتسامى على الخلاف والجدل... ولو أن قائلاً قال إنه لم يدر على خاطر إنسان الشك فيها وفي صحتها كل هذه القرون لما كان

قائلاً باطلاً، ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الإجماع الحقيقي أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية في أول ما نذكر... وإن مما يدل على شدة إيمان الناس بها وإتفاقهم على نبذ الخلاف فيها أن رجلاً ثائراً بكل ما عرف من آراء وعقائد ونظم وحقائق – بل وغرائز – مثل أبي العلاء – أراد مرة أن يمدح نفسه وأن يبالغ في مديحها ويأتي بالمستحيل الذي لا يكون، ليكون ذلك أدل على ما يتصف به من نبوغ وعبقرية تستطيع أن تصنع ما لا يستطاع أن يصنع وما يعلم الناس كافة أن أحداً لا يستطيعه، فلم يجد شيئاً يقوله أعظم من أن يدعي أنه يقدر على أن يأتي بما لم يأت به الأوائل – وهو الأخير زمانه – لأنه يرى أنه إذا فعل ذلك وجاء بشيء فات الأولين فقد بلغ ما يرمي إليه من نعت نفسه بالقدرة على المستحيلات، فقال بيته المشهور من قصيدة له مشهورة:

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

ويحكي الرواة أن الناس أنكروا على أبي العلاء هذه الدعوى وأن الإنكار كان عاماً حتى إن غلاماً – كان من جملة المنكرين – تصدى لأبي العلاء متحدياً له غاضباً للأوائل منتصراً لهم وقال له: إن الأوائل قد جاءوا بثمانية وعشرين حرفاً من حروف الهجاء فزدها حرفاً. وقد ذكروا أن هذا التعجيز قد أصاب من شيخ المعرة مقتلاً فأسكت غير واجد جواباً.

وكان أقوى ما عززوا به هذه الأغلوطة أنهم قلدوها مصلح الإنسانية عليه السلام وصحابته، وأنهم ذهبوا يجمعون الروايات من هنا وهناك ويزعمونها من كلامهم إلى أن استقرت في الأذهان هذا الإستقرار الذي صار من العسير التشكيك فيه وزحزحته.

من هذه الروايات الرواية التي أوردناها في مطلع البحث وهي: (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه.) وهذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) لأن نسبة الشر إلى الزمان سب صريح له. والزمان يقيناً لا يفعل خيراً ولا شراً، ولكن أهله هم الذين يفعلون فأنى ينسب إليه الشر؟ فإذا قيل إن المراد من هذه الرواية أن الناس يفسدون تباعاً، وأن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذي قبله، وخير من أهل الزمان الذي بعده، وهكذا، فالذم فيها لا إلى أهل الزمان، والرسول لا يمكن أن يقول – ولو

http://www.ithar.com

ظاهراً – ما نهى الناس عن قوله لأنه جاء معلماً ولم يجيء ملبساً ولا معمياً، وقد كان من الممكن أن يقول: (لا يأتي زمان إلا وأهله شر من أهل الزمان الذي قبله)، أو ما هذا معناه.

وقيل ثانياً: إن الذين يسبون الدهم هم أيضاً يريدون سب أهل الدهر لا الدهر نفسه، لأنهم يعلمون أن الدهر لا يصنع شيئاً كما قال أحدهم:

إن الجديدين مع طول إختلافهما
لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومع أن هذا هو قصدهم فقد نهوا عن سب الدهر.

وقيل ثالثاً: كيف يصح الزعم أن أهل كل زمان يكونون شراً من الذين قبلهم؟ إن هذه دعوى يكذبها كل شيء؛ يكذبها الدين والحس والعقل والتاريخ. والأديان كلها لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكذيباً لهذه الدعوى، لأنها إنما جاءت لنقل الناس من حالة عامة إلى أخرى مغايرة – وقد نقلتهم – وكان الناس الذين قبلوا الدين هم بلا ريب خيراً من الذين قبلهم ممن كانوا على خلاف الدين: فكان الأنبياء والمؤمنون بهم خيراً جداً من الذين قبلهم. ولو كانت هذه الدعوى صادقة لوجب على الأنبياء وعلى المصلحين أن يأمروا الناس بإتباع من سبقوهم من الآباء والأسلاف. بل كانت هذه هي دعوى خصوم الأنبياء لأنهم كانوا يأبون قبول ما جاءوهم به، زاعمين أن الواجب عليهم أن يحافظوا على عهد الأولين وعلى عهد الأجداد، ومدعين أن من الباطل أن يكون الأسلاف في ضلال وأن يكون الأنبياء وأتباعهم من الأخلاف على الهدى وعلى الحق. وقد ذكر القرآن هذه الحجة على المشركين من العرب في مواضع كثيرة، وقد أعلنها الله عليهم حرباً شعواء مسفهاً أحلامهم، مطيلاً جدالهم، ومبيناً ما في هذا الإحتجاج من غواية وجهالة. وقد حكى الله عن إبراهيم أنه قال لقومه" أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. "الآية. فنص على الأقدمين ليدل على أنه لا قيمة للقدم... فوجود الأديان إذن رد لهذا الزعم القائل: إن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذي قبله، بل هو زعم الذين ردوا الأديان، لأنهم استبعدوا أن يهتدي المتأخرون ويضل الأقدمون. فكأن هذه الفكرة هي فكرة أعداء الأديان والإصلاح الذين جبلوا على الجمود والتقليد لمن سلفوا على زعم أنهم أعقل وأفضل وأرشد وأعظم، لأنهم أقدم. أما الأديان ودعوات الإصلاح فإنها ثورة على الجمود

والتقليد لأن هدفها الأكبر تقديم الإنسانية بأفكارها وعقائدها وأعمالها إلى الأمام. وهذا لا يكون ممكناً إلا بالثورة بحجة الحدوث... ولولا هذا لما قامت الأديان، ولما قام شيء من الإصلاح، ولما تقدمت العلوم والمعارف.

وفي الرواية قصة هي كوثيقة الجريمة التي تعلق في عنق المتهم: قالوا أتى الناس أنس ابن مالك وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف فقال أنس اصبروا فإنه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم... وإذن فالرواية إنما سيقت في مقام الأمر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل في ما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح، ولا أمل في أن يوجد أحسن من الحجاج من خليفته المرخى له في عنانه، ليخوض في عدوانه؛ لأن الناس أبداً يفسدون ولا يصلحون، ولأنهم أبداً يجورون ولا يعدلون، وأنهم سيظلون على ذلك يتتابعون في الإثم والفساد إلى قيام الساعة من غير أن يقوم بينهم صالح عادل... فالحجاج وخليفته شر من الذين قبلهم، وهما خير من الذين بعدهم. فإذا ذهب الحجاج وذهب معه حكمه فلن يجيء خير منه بل شر، لأنه بعده. وإذن فلا معنى للتبرم من حكومته ومن رجاء زوالها، بل يجب العمل على بقائها والإستزادة من أيامها، لأن بعض الشر أهون من بعض، ولأن شر الحجاج أهون من شر من سيأتون بعده... وقد جاء في رواية أخرى أن الحسن البصري سمع الناس يدعون على الحجاج فنهاهم قائلاً: إني أخاف إذا ذهب الحجاج أن تتلوى عليكم القردة والخنازير.

ومن الواضح عند من لم يتخلوا عن عقولهم لشيوخهم، وعند من لم يضيعوا صوابهم بين سطور الكتب الصفراء المظلمة البالية أن هذا وأمثاله إنما وضع بقصد سياسي، يراد به أن تستسلم الشعوب لقتلتها وجلاديها ولصوصها بدون أن تفكر في الخلاص، بل بدون أن تقبل هذا الخلاص لو قدم إليها هدية رخيصة، خوفاً من العاقبة النكراء، لأن الزمان وأهله أبداً يتتابعون إلى الشر ويتقدمون إليه... وهذا كما لا يخفى غرض عظيم من أغراض السياسيين الذين يستعبدون الأمم ويركبونها ويأخذون منها كل شيء ولا يهبونها شيئاً، وينالون منها ما أرادوا ولا ينال أحد منهم ما أراد... وليس هنالك وسيلة أنجع في تلك العصور ولا أقرب إلى تحقيق هذا الهدف ونيل هذا المطلب من أن تحمل القضية برمتها على الدين... وقد لعبت هذه اليد السياسية في هذه المسألة بمهارة ونجاح،

http://www.ithar.com

واستخدمت لتنفيذ سياستها هذه جموعاً كبيرة من الأغرار الغافلين الذين أقيموا للناس رجال دين، وزعموا أئمة مصلحين وأتقياء زاهدين... فتكاثرت الروايات الموضوعة لهذه الأغراض، وزحمت الجو الإسلامي أو الشرقي بها زحماً يشهد للقوم بالبراعة ولضحاياهم بالغرارة والغباوة. وقد كان قيام هذه الروايات بعملية التخدير التي كانت هي الحامل عليها قياماً ناجحاً، فقد ظلت الأمم الإسلامية تغط تحت تأثيرها وتخديرها – والسياط تأخذها من كل جانب، وحبال الجلادين تتحكم في رقابها وتعلق منها ما تشاء – كل هذه القرون بدون أن تفيق أو تتألم! وإن آثارها لا تزال اليوم ماثلة في كثير من البلاد مثل ما كانت منذ مئات السنين... أما النفوس فإنها لا تزال مأخوذة مسحورة بسحرها مخيمة عليها بشكل يدعو الى الاستغراب. ومن مظاهر ذلك هذا الذي نشهده في كل الطوائف في البلدان الإسلامية أو الشرقية من الخنوع لخلفاء أولئك الجلادين الذين يحاولون اليوم أن يقوموا بتمثيل أدوار أسلافهم من الطغاة. وقد رأينا البائسين المحرومين يجدون لذة كبيرة وسعادة نفسية، ووجدناهم تشرق وجوههم الكالحة المغبرة إذا أبصروا هؤلاء الذين أخذوا منهم كل شيء ولم يعطوهم شيئاً يمرون بهم، بل إنهم يقفون صفوفاً صفوفاً ليتمتعوا برؤيتهم وليسعدوا بمشهدهم إذا ذهبوا أو جاءوا بمواكبهم التي يجب أن تملأ النفوس حقداً وغضاضة، من غير أن يتألموا من ذلك أو تطرف له أعينهم، بل لعلهم يذهبون يدعون لهم من أعماق صدورهم، يسألون الله أن يزيدهم مما أعطاهم، وأن يرفع من مقاماتهم فوق رؤوسهم أكثر مما رفع! ولا شك أن هذه الروح التي برئت من الأحقاد النافعة، ومن الغضب والغيظ لمرأى المظالم والظالمين – أثر من آثار هذه الروايات، وبقية من بقايا أفعالها بالأولين المستعبدين. وهذه الروح تكاد لا توجد اليوم في البلدان الغربية، ولكنها لجأت بإطمئنان إلى هذه الأركان التي لجأ إليها الجمود والركود والتقليد والإستسلام للجلادين. ومن عزا إلى أنس – أحد أصحاب الرسول – أنه أمر بالصبر والإستسلام لمظالم الحجاج ومفاسده، بحجة أن من بعده شر منه وأنه خير ممن بعده، فقد بالغ في الإساءة.

فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا البحث وسواها من النقول الأخرى، المزعوم فيها أن الإنسانية ترتد إلى الوراء، وأن القدماء أبداً خير من الدين يجيئون بعدهم، وأن الشر والفساد أبداً في إزدياد، وأن كل شيء

ينقص إلا الشر فإنه يزيد – روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحبه فقد أصر على التنقيص والإتهام.

* * *

كيف جاءت هذه الفكرة – فكرة إعتقاد الخير في الأولين والشر في الآخرين؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الإنسانية. ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الأطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم وإتجاههم العام؛ فإنهم يرون أن من هم أقدم منهم سناً أكبر منهم عقولاً وأضخم إقتداراً. ولهذا فإنهم يجهدون على محاولة تقليدهم والإقتداء بهم من غير تفكير أو تردد، وهم مخلصون في هذا التقليد، بل إن كل تفكيرهم وتناولهم الأمور موجه إلى هذا التقليد مقصود به، بل لعلهم يرون ويعتقدون أن الكبار من الآباء والأجداد والأقارب وغيرهم يستطيعون أن يصنعوا كل ما يريدون، وأن قواهم غير محدودة. ومن مظاهر ذلك ودلائله أنهم يطلبون منهم كل ما يخطر لهم على بال دون التفكير في كون المطلوب يدخل تحت القدرة البشرية أم لا. وقد يريد الطفل من أبويه وغيرهما أن يحضروا له القمر وأن يضيفوا الشمس إلى لعبه الخشبية... ففكرة الطفولة قائمة على أمرين: الأول: على أن الأقدم سناً، الأكبر جسماً أحسن منهم تفكيراً وأقوى قوة، والثاني: أن هذه القوة – العقلية والبدنية – غير محدودة وغير عاجزة عن شيء... وقد ترتب على هذين الأمرين أمران: الأول حرص الأطفال على تقليد الكبار الذين اعتقدوا فيهم هذه العقيدة، والثاني تركيز كل رغباتهم فيهم وصرف جميع آمالهم وحاجاتهم إليهم، معبرين عن ذلك بالبكاء والضراعة والطلب الصريح. وليس هناك شك في أن هذه الأفكار الطفلية الخاطئة ضرورية للأطفال أنفسهم وللكبار وللإنسانية أجمع. فلو أنهم لم يعتقدوا هذا الإعتقاد في آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم وفي الكبار لما تربوا التربية التي تفرض عليهم، ولما أمكن أن يكونوا بشراً بالمعنى الصحيح، لأنهم إذا لم يروا هذا الرأي فيمن يقومون على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم فإنهم لن يأخذوا عنهم شيئاً، ولن يحاكوهم في شيء. وإذا كانوا كذلك فلن يقبلوا تعليماً ولا تربية ولا توجيهاً، وإذا لم يقبلوا ذلك فلن تنمو فيهم المعاني الإنسانية والأخلاق ولا أمر من هذه الأمور التي صار بها الإنسان إنساناً مهذباً... وأعظم روح توجه التربية وتسيطر عليها هي روح الثقة والإطمئنان والإيمان – أي ثقة

http://www.ithar.com

المربي وإطمئنانه وإيمانه بالمربي. وإذا فقدت هذه الروح أو ضعفت فلن تكون التربية أو محاولتها آتية بالغرض المنشود... فهذا الإعتقاد الذي أسميناه إحدى إعتقادات الطفولة أمر لازم وخطأ لا بد منه من أجل نقل الإنسانية إلى الأمام بعلومها وأخلاقها وكل معانيها.

ولكن كيف نشأت هذه الفكرة عند الأطفال وما مصدرها؟ يظهر أنهم حينما جاءوا الدنيا فوجدوا آباءهم والذين هم أكبر منهم يستطيعون أموراً هم لا يستطيعونها، ورأوهم هم الذين يصنعون لهم ويعطونهم كل حاجاتهم وكل ما يهبهم البقاء، ورأوهم يتصرفون في أملاكهم المحدودة وبيوتهم الصغيرة الخاصة تصرفاً مطلقاً، نشأت لديهم هذه الفكرة، وظنوهم مخصوصين بالقدرة والكمال دونهم، وحسبوا أنهم إذا تصرفوا في أملاكهم ومنازلهم تصرفاً بدون معارضة فإن لهم أيضاً التصرف المطلق، وأنه لا فرق بين التصرف في البيت والملك الخاص وبين التصرف فيما هو خارج البيت وفي العالم كله لأنهم لا يدركون الفرق بين هذا وهذا، والتفكير في مثل هذا الفرق بعيد جداً عن أذهانهم الصغيرة... ثم اعتقدوا أن هذا الإختصاص الذي ظفر به الكبار مرجعه إلى أنهم كانوا أقدم وأكبر منهم، وأن المسألة ترجع إلى القدم والكبر. ويدل على هذا أن الأطفال يصرحون به قولاً، فإذا طلب طفل منك أمراً فقلت له افعله أنت قال معتذراً: أنا صغير أو قال أنت كبير – وهما بمعنى واحد. فالصغير لا يفعل وإنما يفعل من أجله، والكبير هو الذي يفعل، ويفعل من أجل الصغار.

وإذا علم هذا علم أن هذه الفكرة هي إحدى فكر الطفولة. فإذا قيل وكيف إنتقلت للكبار كان الجواب أن الأطفال لما كانت هذه فكرتهم بقيت عندهم وسارت معهم وهم يتقدمون إلى سن الشباب وسن الرجولة، وأصبحت ملازمة لهم وهم شبان ورجال بل وهم أمم وشعوب... وكان الخلاص منها يحتاج إلى مقدرة عقلية فائقة، ليعلموا بها كيف كان الكبار أعلم منهم وأقدر حينما كانوا صغاراً وما سبب ذلك – وهل سببه التقدم الزماني أم سببه النضج العقلي، وأن هذا النضج يكون في الأوان للصغار كما كان في الأوان للكبار، وأن الكبار كانوا صغاراً، وأن الصغار سيكونون أيضاً كباراً، وأن التقدم والتأخر الزمانيين لا شأن لهما في هذه المسألة، وأن الشأن لتبريز العقل، وأن زمان التبريز ليس هو القديم وليس هو ممكناً لقوم دون قوم – وربط المسببات بأسبابها ربطاً صحيحاً

مفقود دائماً عند الأمم التي تبلغ المرتقى الثقافي المطلوب. والأمم المتأخرة الجاهلة مصابة بالفوضى في التسبيب. فهذه الفكرة التي هي شعار للطفولة الميلادية بقيت أيضاً شعاراً للطفولة العقلية. والخروج منها غير ممكن إلا بعد تخطي الطفولتين. وما استطاع الإنسان أن يعرف خطأ هذه الفكرة إلا يوم أن بلغ رشاده الوجودي.

ومن الممكن أن يقال في تعليل الإعتقاد في القدماء أن المرء حينما يفد على الدنيا ويدخل المدرسة للتعليم والتلقين، أو يسمع تعاليم عامة خارج المدرسة، إنما يسمع ويلقن ويدرس ويحفظ كتب الأوائل – الذين هم قبله على أقل تقدير – وآراءهم وأفكارهم وعلومهم... وهكذا يأخذ الإعتقاد فيهم ينشأ ويعظم ويرسخ، ويقع في ظنه أن كتب الأوائل وعلومهم هي التي تدرس وتعلم وتفرض معرفتها على من يجيئون أخيراً من أجل أنهم هم المخصوصون بالمعارف والنبوغ والمقدرة الذهنية... ولا يدري أن مرجع هذا إلى أن علوم الإنسان تتجمع كلها أو أعظمها عند الجيل الأخير، ويأخذها ليضيف إليها علومه هو، وأنه إنما يعلم كتب الأولين ومعارفهم من أجل أنها علوم الإنسانية مجتمعة وأنها التجارب العلمية البشرية كلها، وأنه لا بد من البناء على السابق، لا من أجل أنهم أعلم وأفضل من المتأخرين. ولوجود الآثار تأثير في هذا.

ويمكن أن يقال في تعليل هذا أيضاً: أن المتأخر يقرأ للمتقدم ويقرأ عنه، وقد ثبت أن أكثر ما يكتب ويدون إنما يقوم على المبالغة والتزيد والكذب – إما تزلفاً وإما إرادة للإغراب، وإما لأغراض أخرى. فإذا قرأ المتأخرون كتب المتقدمين عن المتقدمين وعن فضائلهم وقواهم ومحاسنهم وإتساع ممالكهم وعظمة جيوشهم ومعجزاتهم وخوارقهم وغير ذلك، مما أكثره مكذوب أو مبالغ فيه، أخذهم الإعجاب بأصحاب هذا التاريخ السحري وبأصحاب هذه المعجزات والكرامات والخوارق... وهنا لا يجدون بداً من أن يسقطوا صرعى لهذه الأكاذيب، ولا يجدون بداً من أن يحنوا رؤوسهم تحت عروش هؤلاء القياصرة الخياليين، ومن هنا يذهبون يقيمون القدماء مقام الآلهة المعبودين ويضعون أنفسهم موضع العبيد المسبحين. والذنب في هذا يقع على رؤوس الكاذبين والجاهلين من المؤلفين الذين لم يستطيعوا أن يصفوا النهار بأوصاف النهار ولا الليل بأوصاف الليل... وكم لهذه المؤلفات المزورة ولهؤلاء المؤلفين المزورين

http://www.ithar.com

من ضحايا! وكم صرفوا طالبي الذهب عن طلبه في مناجمه وشغلوهم عن ذلك بمحاولة تصيير المعادن الرخيصة ذهباً وهّاجاً! وكم سحروا قراءهم المساكين، وأطاروا ألبابهم بأساطيرهم عن الأولين! وكم أخذوا بأبصارهم وشدوها بذلك الفردوس المفقود المنشود الذي لم يوجد إلا في كتبهم وبين سطورها المظلمة وفي عباراتها الركيكة! إن هذه الكتب المسبحة بحمد هؤلاء الأرباب لهي من أعظم ما حاد بالإنسان عن طريقه، وأعظم ما صنع له هذه النظارات التي لم يقدر – وهي على عينيه – أن يبصر الضياء، فبقي يعمه في ظلماته.

ومن الممكن أن يقال في تعليل هذا: إن الإنسان لما كان لا بد له من مثل أعلى يقدم إليه إحترامه وحبه وثناءه – والإنسان بحسب طبيعته لا يمكن أن يحيا أو يسعد بدون ذلك – وكان من غير المستطاع في أحيان كثيرة أن يجعل مثله هذا من الأحياء المعاصرين، لأن مخازيهم ونقائصهم حية تسعى معهم ترفض بقوة هذا الإحترام والحب والثناء. فذهب يتطلع متلمساً هذا المثل والأمل، وهذه القبلة ليستقبلها وليصلّي إليها بآماله وأهوائه. فلم يجد ذلك إلا في بطن الأرض بين الرفات والأموات، لأن حقيقتهم مدفونة معهم لا تستطيع أن تنازع فيما يدّعونه عليها وعلى أهلها من الكمال المنتحل والمجد المكذوب... وهذا من أعظم أسباب الكلف بالميتين عند هؤلاء المسحورين. ولهذا فإنهم لم يجدوا غضاضة في أن يقتلوا قوماً ثم يعكفوا على أجداثهم يعبدونهم، ويخلعون على عظامهم البالية العارية خلع التمجيد والتقديس، بل التنزيه والتأليه! وها هم أولاء اليوم يعبدون قبول أقوام كانوا في حياتهم لا يظفرون من إخوانهم السابقين المعاصرين لهم بالعطف اللساني! وها هم أولاء يقدمون إلى هذه القبور الأموال الطائلة، وقد كانوا يبخلون على أربابها – يوم أن كانوا أحياء يحتاجون إلى المال وينتفعون به – بالقوت لو طلبوه منهم. وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه:

لا ألفينك بعد الموت تعبدني
وفي حياتي ما زودتني زاداً

* * *

كل هذا الذي تقدم هو كالمقدمة لما نريد أن نقول – وهو أن هذه الفكرة القائلة برجوع الإنسان إلى الوراء كانت من أعظم ما وقف في سبيل القائلين بها وسبيل نموهم الوجودي... وقد محت من أذهانهم كل ميل للتحفز وللتجديد والإبتكار

ومعالجة الوثوب، وقضت على كل محاولة عقلية أو خيالية قد تتقدم بالعلم أو تسمو بالعاطفة، بل لقد كانت تعجز العقل عن النهوض بوظيفته مرة أخرى لأنها قد ضربت عليه سباتاً طويلاً حتى كاد يفسد فساداً عاماً ويعجز عجزاً أبدياً.

كان رشد الإنسانية وأهدافها أمامها، وهي لن تبلغها إلا إذا سارت إليها، وهي لن تسير إليها إلا إذا اعتقدت أنها أمامها... وهؤلاء اعتقدوا أن الرشد والأهداف وراءهم، فلم يكن بد من شيئين: أحدهما الوقوف عن المسير إلى الأمام، لأن المسير إلى الأمام يبعد عن الرشد والأهداف لأنها وراء، وثاني الشيئين العمل بكل حول على الرجوع إلى الوراء طلباً لهذه الأهداف ولذاك الرشد... فكان لهذا نتيجتان: أولاهما أنهم لم يخطوا إلى الأمام خطوة واحدة، وآخرهما أنهم رجعوا القهقرى أشواطاً وخطوات بعيدة، لأنهم قهروا قواهم على الرجوع وألزموها به، فأضاعوها في التأخر وفي السير خلفاً، وكانوا كلما تقدمت الإنسانية إلى كمالها شوطاً تأخروا هم شوطاً، فتضاعف الفرق، لأنهم كانوا يسيرون بالنسبة لها سيراً عكسياً.

كانت العقيدة التي حكمت هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم: أحدهما كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر، وثانيهما أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال.

أما الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير في التجديد والإبتكار وقوفاً تاماً، وإن عدل نهائياً – على حسب ما ظنوا – عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير إذ قد فرغ من الإنسانية – على ما رأوا، فتعطلت القوى وركب السكون والركود المواهب، فمرت عشرات القرون على هؤلاء وهي تُعد لهم من حيث الوجود والأعداد عليهم من حيث التاريخ والأعمال.

انظر، إن الكتب التي ألفت منذ مئات السنين – بل منذ ألف عام تقريباً – في الفقه أو في التفسير أو في الحديث أو في العقائد أو في التاريخ أو في الأدب أو في النحو والصرف أو في اللغة، بل أو في الطب، إن كان هناك طب، كتذكرة داود وأمثالها، أو في الفلسفة أو في التربية إن كان ثمة تربية – إن الكتب التي ألفت منذ ذاك التاريخ في هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هي المرجع، وهي التي تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع إلى قراءتها وإقتنائها في العالم الإسلامي كله... وإن وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلاً

http://www.ithar.com

مشوشاً ونسخاً ممسوخاً من هذه الكتب المعمّرة ذات الألف وذات المئين من السنين، حتى إن المجلات الدينية التي تكاثرت في السنين الأخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن وشرح للحديث وتعديد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم في الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه، إن كان قد وجد إتفاق – إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون محاولة تافهة أراد بها محاولوها أن يقدموا إلى قرائهم فتاتاً متناثراً من تلك الموائد التي قام الآكلون عنها منذ ألف عام.

ولقد يعجب المرء إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام، قد عقمت في عددها العديد، وعمرها المديد عن أن تلد مولوداً واحداً حتى ضرب المثل بقدمها... إن هذه الجامعة في كل هذه المدة وفي جميع هذه الأعداد الهائلة من الطلبة والأساتذة، وفي ذلك الثراء الوفير الذي أرصده لها الواقفون، قد عجزت عن أن تؤلف كتاباً واحداً في نوع من أنواع العلوم التي اختصت بها وبدراستها وتدريسها... والكتب القديمة العقيمة التي جعلت مادة للدراسة فيها ليست من وضعها ولا من تأليفها ونقلها، وإنما هي إستعارة خارجية، وأكثرها من وضع قوم ليسوا عرباً لا في ألسنتهم ولا في أفكارهم ولا في أذواقهم...

وهذان العقم والعجز اللذان ضُربا على هذه الجامعة ضُربا أيضاً على سائر الجامعات والجوامع والمعاهد والبيوت الإسلامية الدينية... وإذا حاول المرء أن يحار في فهم سبب هذا العقم فلا يجب أن تطول به الحيرة كثيراً، فإن السبب في ذلك – أو أعظم الأسباب – لأن المفروض أن لكل علة من عللنا حشداً من الأسباب – هو ما ذكرنا من الحكم على الإنسانية بأنها قد فرغ منها وأن خيرها كله قد تقدم وأنه لم يبق إلا شرها... فإن معنى هذا أن كل محاولة ينهض بها المتأخر فهي لا تعدو أن تكون أحد أمرين: إما خطأ وضلالاً إذا كان الأوائل لم يفعلوها ويحاولوها، وإما صواباً وهداية إذا كانوا قد فعلوها! وإذن فلا معنى للمحاولة، وإذن فلا تجديد إلا في الخطأ والشر، وإذن فقد خاب المجددون والمبتكرون، وطوبى لمن عرف قدره فوقف عنده فسلم واستراح وأراح.

جثمت عليهم هذه الفكرة المدمرة فأذعنوا لها واستسلموا، ووجدوا لذة في الإذعان والإستسلام، لأنهما أراحاهم من تكاليف الوثوب ومحاولة السير،

ووجدوا في أنفسهم ومن أنفسهم ما يشفع لهذه الفكرة وما يقنعهم بها... فأغمضوا أجفانهم على العمى. وعقولهم على العماية، وعقلوا أعضاءهم بالكسل اللذيذ، وقضوها ليلة طويلة في السبات والعالم كله من حولهم يدلج ويسري. ثم تبلج الصباح وقام النهار فإذا بالعالم قد سار ألف عام، وإذا بهم قد رقدوا ألف عام، وإذا ما بينهم من الفرق هو تاريخ ألف عام، ولكنه ليس كالأعوام، بل هو ألف يساوي عمر الإنسانية كله في الإنتاج، بل يفوقه.

وقفت القوى المفكرة عن العمل فضاعت عليها حكمة وجودها وتخلفت عن مسايرة القوة الفكرية العاملة، وتخلفت بأربابها عن مسايرة الآخرين، ثم أصيبت من طول الركود وترك العمل بما يشبه الفساد الطبيعي، كآلة لا تستعمل. ولو أن إنساناً ظل نائماً مدة طويلة ولم يستعمل أعضاءه في قيام ولا مشي ولا حركة لأصيب جسمه وقواه بما يوشك أن يكون فساداً طبيعياً، ولاحتاج – إذا حاول إسترجاع نشاطه وأعضائه كما هي – إلى تدريب ورياضة، ولو أنه أغمض عينيه مدة طويلة ومنعهما النور لأتبعه الإبصار حينما يحاوله، وقد يفقد بصره البتة... فأصبح الفرق بين هؤلاء وبين الآخرين من ناحيتين: الأولى: أن الآخرين قد استخدموا عقولهم فقدمتهم، أما هم ففقدوا عقولهم وحكموا عليها بالإعدام فلم يقدروا على التقدم، لأن التقدم إنما يكون بتقديم العقل وإرشاده، والعقل قد عزل عن هذه الوظيفة. والثاني: أن الآخرين بقيت عقولهم عاملة فبقيت نشيطة سليمة لم تصب بما يشبه الركود أو الفساد، أما هم فأصيبت عقولهم فصارت محتاجة إلى البعث والترويض والتمرين قبل أن تصبح قادرة على العمل، فتعاظم الفرق. ومعلوم أن كل شيء يصلحه العمل على حسب طاقته ويفسده الإهمال والترك. والعلم والتجربة مرشدان الى الاستعانة على الأبدان التي تقل حركتها وعملها بالرياضة لتبقى على سلامتها وطاقتها ووظيفتها في الحياة. فإن من المعروف أن الأبدان التي يكثر سكونها تكون عرضة للإنهيار، وفريسة سهلة للأمراض، وقد تصاب في الآخر بما يجعلها غير صالحة للحياة ولا قادرة على الإستمتاع بنعمة الوجود.

وأما الأمر الثاني – وهو الإعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخير كله وبلغوا الكمال المطلق، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بها – فقد ترتب عليه أيضاً نتائجه. فإن هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم

http://www.ithar.com

وعنايتهم إلى محاولة الإقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم، بل محاولة إعادتهم ونشرهم لو كان ذلك مستطاعاً... و الفكرة التقليدية كانت مستولية على جميع الطوائف. فالقائد والسياسي والزعيم والملك – كل من هؤلاء يحاول – ويتمنى لو قدر – أن يقتدي بمن خلوا قبله من القواد والسياسيين والزعماء والملوك، ويرى كماله ونجاحه مقدورين بما يحسن أخذه ونقله عن ذلك المثل الأعلى القديم الذي تخيله – والمحدث والفقيه والمفسر والمتكلم والفيلسوف والأديب والنحوي واللغوي وسواهم – كل منهم يدأب على أن يكون كالسابقين في هذه العلوم وعلى أن يخلط نفسه بينهم وأن يفهمهم ويفهم ما قالوا وكتبوا من المؤلفات والعلوم. وكل منهم يرى أن قيمته العلمية مقدرة بما يأخذ ويفهم عن هؤلاء وعن كتبهم، بل والزهاد والعباد وأضرابهم عملوا على أن يكونوا نسخاً مكررة لمن تصوروهم مثلهم العليا من الأقدمين في العبادة والزهادة، وهكذا كان جميع الناس. وقد كان لهذا نتائج عديدة:

منها أن جميع البارزين الذين اشتغلوا بالتفكير وبالبحث العلمي قد وجهوا كل تفكيرهم وبحثهم إلى كلام الأولين وإلى ما خلفوا من كتب وآراء، محاولين فهمها ووضع الشروح والتفاسير عليها دون أن يحاولوا إبداء فكرة مستقلة أو إيجاد رأي جديد – وهكذا أضاعوا قواهم في غير ما شيء وفي غير أن يفيدوا أو يستفيدوا. فكانت الخسارة الإنسانية في هؤلاء لا يمكن تعويضها، كما لا يمكن تصورها ولا تقديرها لجسامتها.

وكم يأسى المرء إذا علم أن آلاف العقول الممتازة في إستعدادها – أو مئات الآلاف – أو أكثر من ذلك – تلك العقول التي عدت لامعة في ظلمات القرون الوسطى – قد بددت وأنفق ما في إمكانها في إيراد الإحتمالات والإمكانات التي قد يحتملها كلام الشيوخ المتقدمين وقد يكون غير محتمل لها! وكم يأسى إذا تذكر تلك المعارك الهائلة التي أداروها بإخلاص وتقى وعناية وبلا إنقطاع، في الخلاف على فهم كلامهم – أي كلام الأولين – وفيما أرادوا وعنوا بما قالوا وكتبوا، وإذا نظر إلى هذه الجبال من الكتب التي لا يمكن تعدادها ثم رأى أن كل ما فيها لا يخرج عن تفسير لكلمة قالها أحد القدماء أو عن إختلاف عليها أو عن إيراد الوجوه التي يمكن أن تكون مرادة بها أو عن تبيان لفضائله أو لكراماته وخوارقه، ونحو ذلك مما يدور هذا المدار.

إننا لو جمعنا جميع الكتب التي تزخر بها المكتبات الخاصة والعامة مما وضع في الألف السنة الماضية، ثم أردنا أن نخرج بكتاب واحد لم يوضع هذا الوضع ولم يقصد به هذا القصد، لأعجزنا الخروج! وأدهى من ذلك هذا الركام من المؤلفات التي وضعت خاصة بالأولياء وبتراجمهم وبسرد ما كانوا يتمتعون به من سلطان روحي قهر لهم الطبيعة وأذل نواميسها فجعلها طوع أهوائهم... معنى هذا كله أن عشرات الأجيال قد تنازلوا عن كل قواهم الذهنية لتضيع وتنفق في البحث عن كمال الأولين، وفي التدليل عليه وفي التمسح بأركانهم، والطواف بحرمهم، وفي الحج الروحي الفكري الذي لا إحلال منه إلى مشاعرهم. وسبب هذا هو إعتقاد الكمال فيهم. فيا لها من خسارة إنتزعت من الإنسان أجل ما فيه مدى ألف عام، بل إنتزعت منه معناه كله بدون أن تعوضه شيئاً.

ومنها – أي من النتائج المترتبة على تصور هذا الكمال – كثرة العمل مع قلة الإنتاج، ونشاط الحركة التأليفية مع ركود الحركة الفكرية – أي إن المؤلفين والمتكلمين والناعبين في العلوم والحقائق يكثرون جداً ولكنهم يقلون أيضاً جداً، لأنهم لا يصنعون شيئاً ولا يأتون بشيء. وذلك أن عملهم حينئذ لا يجاوز أن يكون ترديداً وتمديداً لما قاله وكتبه الأولون، وإيجاد نسخ متعددة بأسماء متعددة لشيء لا يتعدد. لأن الإنسان لا يريد بما يعمله سوى الكمال الذي يتصوره إذا استطاعه ولم يمنعه منه مانع، فإذا اعتقد معتقد بأن الكمال إنما يلتمس عند الماضين وفيما ألفوا وحكموا ورووا فلا محالة من أن يقضي حياته جاثياً أمام تلك الهياكل المقدسة جثو العابد أمام صنمه المقدس، إلتماساً للفيوضات والإمدادات والبركات. ولو أننا نظرنا في مئات الكتب وآلافها الموضوعة في علم واحد لما ألفيناها إلا كتاباً واحداً أخذت منه صور عديدة منها الصغيرة ومنها الكبيرة، ومنها المشوهة ومنها المقاربة، ثم نحلت أسماء على عددها. إننا نعد في علم التاريخ مئات الكتب وألوفها – وكذا في الحديث والفقه والتفسير وفي كل علم – ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتاباً واحداً! فإنسان ألّف منذ ألْف سنة مثلاً مؤلفاً في علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها، فإذا جاء بعده ألْف مؤلف في هذا العلم فإنهم جميعاً سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير. وهذا هو الشأن في جميع المؤلفات التي تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتي يفوت إحصاؤها. وعلى

http://www.ithar.com

هذا فمن الخطأ الذي يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأياً في مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأي قد قال به ورواه هذا العدد العديد. والصحيح أن نقول إنها أو إنه رواية أو رأي إنسان واحد في مؤلف واحد نقله عن هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل، فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول: كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم! وكيف تكون كذباً ثم يخفى حالها على كل هؤلاء! إن من السهل على الإنسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه، ولكن من العسير عليه أن يشك في رواية العشرات ورأيهم، ولا سيما إذا كانوا ممن يجل ويحترم. وقد طارت أغلب الأباطيل في أرجاء العالم الإسلامي بهذه الوسيلة حتى صارت من الحقائق التي يرد النزاع فيها ولا يقبل.

وكثرة العمل مع قلة الإنتاج على النحو الذي ذكرناه لها مفاسد: فهي تسرق أوقات القراء كما سرقت أوقات المؤلفين بلا فائدة؛ فإذا قرأ القارىء عشرة كتب من هذا النوع فهو إنما قرأ كتاباً واحداً، والوقت والجهد اللذان بذلا في قراءة التسعة إنما ذهبا في غير شيء سوى التكرار والإعادة للكتاب الأول – ثم الكتاب الأول ماذا فيه!! ومن المشكوك فيه أن يكون لهذا التكرير نتيجة – وهي أيضاً تزحم المكتبات والمطابع، وفي ذلك من التكاليف ما هو معروف – وهي أيضاً تعين على نشر الأباطيل والتمكين لها لأن الباطل الذي ينشر في عدة كتب ويقول به عدة كاتبين ينتشر أكثر مما ينتشر الباطل الذي يكتب في كتاب واحد ويقول به كاتب واحد – إلى مفاسد أخرى كثيرة.

ومنها – أي من النتائج المترتبة على إعتقاد كمال الأولين – إستدامة الخرافات وإستدامة الإيمان بها وإباء النزوع عنها، لأن من آمن بكمال قوم وبأن كل ما يصنعون خير وحق، وبأنهم مطبوعون على الصواب والحكمة فسيأخذ عنهم كل ما بلغه ووصله، وسيصر عليه ويأبى الشك فيه وإن كان فيه ما فيه من الفساد والبطلان، بل سيكافح ويناضح عن كل ذلك، ملقياً بعقله تحت قدميه، بل غير مفكر بأن له عقلاً يجب أن يرجع إليه. ومعنى هذا أن خرافة يكتبها مخرف في عصر من العصور تبقى متنقلة مع كل العصور، مؤمناً بها في كل العصور بلا تفكير في تركها أو شك فيها، بل تصبح عقيدة جامعة لكل من يجيء بعد قائلها وكاتبها. وهكذا تظل الخرافات تتكاثر حتى تخرج من ذلك مجموعة لا شبيه لها

عند أمة من الأمم سوى الأمة التي ذهبت هذا المذهب وقالت هذه المقالة. وهذا هو ما حدث؛ فإن الأباطيل التي كتبها الشعراني أو الغزالي أو غيرهما من المصابين بعقولهم ومعارفهم منذ مئات السنين لا تزال اليوم يؤمن بها مثل الإيمان بها يوم أن قبلت، ولا يزال الإيمان بها يحمل تلك الحرارة التي حملت مؤلفها على وضعها في كتابه مزهواً فخوراً، بل إن حرارة الإيمان بها لا تزال تتزايد وترتفع على رغم القرون التي مرت بها، وعلى رغم المعارف المتجددة التي اجتاحت في البلاد الأخرى أمام سلطانها وجبروتها جيوش الجهالات إجتياحاً مبيداً.

إن العاقل لتأخذه الحيرة البالغة متى أتيح له أن ينظر في هذه الكتب المسنة التي تخرجها المطابع تباعاً ليلتهمها القراء بشره ولذة، وأتيح له أن يرى ما تحمل من جهالات بل من جنون وخبل ومن كفور ومروق، ثم رأى كيف يقبل عليها ويقبلها قوم قيل: إنهم عقلاء، وقيل إنهم مؤمنون، وقيل إنهم خيرون، بدون أن يجدوا فرصة للشك فيها، وبدون أن يجدوا أذناً تصيخ لنقدها والإعتراض عليها، بل بدون أن يتركوا لغيرهم أن ينقد أو يعترض أو يشك. وقد تخف أو تتلاشى هذه الحيرة التي تأخذ بالعاقل إذا علم أن سبب هذا الإستسلام الفظيع لهذه الكتب ولكاتبها يرجع إلى هذه العقيدة القائمة على إعتقاد الأوائل من نسل الشموس، ومن حفدة الآلهة المبرئين من الخطأ ومن الجهل ومن الضلال والخبث وإرادة السوء ومن الضعف والعجز. ولو أن شيئاً من الشك نفذ إلى هذا الإعتقاد فأوهاه وأصاب حرمه المحرم بشيء من الخروق لكان من المحقق ألا يجد هؤلاء المضللون لهم أتباعاً ورعايا يسيرون خلفهم وبين أيديهم كالقطعان المذعورة.

يجد المصلحون اليوم عناء وإرهاقاً في محاولتهم هدم ما شاده الجهل الأول، ويلقون إعراضاً مزعجاً وبلادة منكرة، ويذهب كل ما يبذلونه أو أكثره في هذه المحاولة هباء: فالبراهين لا تجدي بل لا تسمع، والعظات لا تؤثر، وكل شيء يروح كما جاء. والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال في أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات في كتبهم. فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين إعتقاد الكمال المطلق فيهم. والسبيل التي لا سبيل سواها، لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هي فيه، أن تعلّم الكفر بهؤلاء والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين، وأن

http://www.ithar.com

تعلم كيف تثق بنفسها وبعقلها وإستعدادها.

إني لأنظر إلى هذا الميراث الثقيل الباهظ الملقى في طريق المسلمين، وإلى هذه الأسفار التي تروع أعدادها ويعجز تعدادها – وما فيها مما لا يستقيم لأمة أمرها ووجودها معه، فأفزع وتذهب بي الأفكار في كل وجه، ثم تؤوب بي مجتمعة مجمعة على أنه لا خلاص إلا إذا استطعنا أن نكفر بهذا الميراث، وعلى أنه لا يمكن الكفر به إلا إذا عرفنا كيف ننزل مورثينا إياه عن هذه العروش السماوية التي صنعناها لهم على حساب قوانا العقلية والدينية ثم أجلسناهم عليها، ثم جثونا تحتهم نسبح بحمدهم ونقدسهم وننزههم عن كل ما يخطر بالبال من إثم أو نقص أو ضعف! فهل من سبيل إلى هذا؟ على أنه لا سبيل سواه.

ومنها – أي من نتائج هذا الإعتقاد أن وقع معتقدوه بين عاملين يتنازعان قواهم ويتجاذبانهم. وذلك أن الإنسان – كائناً ما كان إعتقاده وتفكيره – لا يستطيع أن يكون غير لبنة في هذا الوجود المتطور المتقدم، فهو من حيث هذا سائر مع الوجود السائر، أراد هذا أم لم يرده، عرفه أم لم يعرفه. فإذا كانت له أفكار وإعتقادات لا تعترف بهذا التقدم والتطور، بل تنكره وتجحده وتحاول الرجوع به إلى الوراء، فهو من حيث هذا متخلف عن الوجود السائر، أو سائر سيراً مضاداً. فهو إذن واقع تحت حكم عاملين متضادين كل منهما يؤثر فيه ويعمل فيه عمله، وهو حينئذ عاجز عن أن يخلص لأحد العاملين ويكون له وحده، فلا مفر من أن يصبح متقسماً وأن تضيع قواه هباء، بل لا مفر من أن يتمزق بين هذين العاملين كما يتمزق كل شيء وقع بين أمرين قويين متنازعين. ولهذا فإن هؤلاء الذين يتلفتون إلى الوراء ويحاولون – لو أمكن – أن يرجعوا بزمانهم ومكانهم وبالوجود كله إلى ذلك العصر الذي تخيلوه وتخيلوا أهله يصبحون أهدافاً سهلة للأفكار المضطربة السوداء وللعقد النفسية والإرتباكات العصبية وللمشروعات الخيالية التافهة التي يولدها الإعياء والعجز والحيرة الغالبة. والحيرة والتردد لا مثيل لهما في تخذيل الشعوب وقتلها، وفي تبديد قوى النفس وإصابتها بالعجز عن كل ما فعل له قيمة وأثر باق... والذين يصابون بالحيرة والتردد من غير المنتظر أن يصنعوا شيئاً يحوز الإعجاب والخلود، كما أنه من غير المنتظر أن يجدوا في هذه الحياة سعادة حقيقية.

والشعوب – بل والأفراد التي تصيب النجاح – هي التي ترزق القدرة على

التصميم وعلى التخلي عن كل حيرة وتردد. والتصميم ضروري في الحالة العادية وفي الطارئة أيضاً وفي كل حالة، فهو ضروري في حالات الحروب وفي حالات السلم؛ فلا بد من التصميم على الحرب في أوانها، كما أنه لا بد من التصميم على السلم في إبانها، وإلا فلا ظفر لا في هذه ولا في هذه. ولو أن إنساناً حاول أن يقوم بعمل صغير ثم لم يعرف كيف يذود كل حيرة وتردد لما كان من المأمول نجاحه.

وإذا كان هذا كله صحيحاً – وهو صحيح بلا شك – فهؤلاء الذين يقولون إنه يجب الرجوع إلى الماضي في كل شيء، ويجب هجر الحاضر في كل شيء، ويقولون إن الخير كله في الأزمان الذاهبة، والشر كله في الأزمان الحاضرة والمقبلة، ويقولون إن قلوبهم معلقة بالماضي البعيد أبداً، وإنهم يعملون على الرجوع إليه – هؤلاء لا بد أن يصابوا بالحيرة التي يعي الخروج منها. وذلك أنهم يقولون هذه المقالات ويعتقدونها ويرونها حقاً، ولكنهم من ناحية أخرى يرون الدنيا وما فيها تدور أمام أعينهم ماضية ممعنة في المضي، مصيبة من النجاح والفوز ما لا تمكن المماراة فيه. فالواقع المشهود المنظور الملموس يقول لهم – إذا قالوا هذه المقالات: – كلا إنها غير صحيحة وغير صادقة، وإني – أنا الواقع المشهود – أشهد ببطلانها وكذبها، ثم تصيح بهم هذه العقيدة من ناحية أخرى مؤكدة صحتها وصدقها وتأييد الأديان كلها وأهلها لها. فتركبهم الحيرة ويركبهم الشك المتولدان من الواقع المشهود ومن هذا الإعتقاد المكين القديم. فيصيرون نهباً متوزعاً، وتذهب هذه الحيرة وهذا التردد يأكلان عقولهم وأفكارهم وأعصابهم وأعمالهم، ويعجزانهم عن أن يصنعوا شيئاً عظيماً... وهذا كله ملاحظ على هؤلاء الذين لا يفتأون ينادون بالماضي – وقد عجزوا عن أن يرجعوه، وعجزوا عن أن يعيشوا فيه، فهو لا يستطيع المجيء إليهم، وهم لا يستطيعون الذهاب إليه، لأنهم ليسوا من أبنائه. وسنة الحياة لا تقاوم. وعجزوا من الناحية الأخرى عن أن يعيشوا في هذا الزمان الذي هم فيه لأنهم يحاولون دائماً التملص منه والخروج عنه – ولأنهم لم يهبوه حبهم وتفكيرهم وهواهم وإتجاههم. فصاروا منقطعين عن هذا وعن هذا، وأضحوا مجندلين بينهما، ينظرون إلى هذا الجانب تارة وإلى الجانب الآخر تارة أخرى. ومن المعلوم أن إنساناً ما لا يستطيع أن ينتزع نفسه من العصر الذي يعيش فيه إنتزاعاً، وأن ينقلها إلى العصر الذي يحبه ويتمناه. فإن الإنسان ابن زمانه وابن نظمه وتقاليده

http://www.ithar.com

وتعاليمه وعاداته وأفكاره. وهذه الأشياء تحكم على الإنسان وإن كان من الممكن أيضاً أن يحكم عليها، ولكن من غير الممكن أن يخرج من كل سلطان لها وتأثير. ولعل من العجب أن البشر هم الذين يوجدون هذه الأمور ثم يتعبدونها ويصبحون من أرقائها الخاضعين لأمرها، بل ثم تصبح هي التي توجدهم وتصنعهم وتكيفهم.

فهؤلاء الذين يجهرون كل وقت بالدعوة إلى الإنسلاخ من عصرهم ومن علومه وأخلاقه وعاداته ونظمه، ليحملوا أنفسهم على أزمان قصية عشقوها، وليعيشوا بأخلاقها وعلومها وعاداتها، ما مثلهم إلا كإنسان قد شد شداً محكماً لا خلاص منه بعربة متجهة بسرعة إلى جهة من الجهات، يحاول الرجوع إلى الجهة الأخرى بكل ما فيه من تحفز وتوثب وإهتمام وأعصاب. إن مثل هذا الإنسان لن ينال من هذه المحاولة سوى إجهاد أعصابه وسوى عذابه النفسي المتواصل، ولكنه لن يتخلى عن عربته ولن يرجع إلى جهته.

وعلى هذا الإعتقاد – إعتقاد كمال الأولين ونقص الآخرين – قامت أكبر جهالة رضيها الإنسان لنفسه، واستعبد بها عقله ونزل بمقتضاها عن أجل ما وهب – عن الفكر الحر الباحث الناظر في الأشياء كيف شاء بلا قيد أو حرج – هذه الجهالة هي إلزامه نفسه بما سماه (التقليد!) وقد نظم ذلك شعراً يحفظه ويدرسه في قوله: (وواجب تقليد حبر منهمو) أي من الشيوخ المتقدمين! من المعقول أو من شبه المعقول أن تفرض العبودية الفكرية على أمة من الأمم أو على الأمم كلها بالقوة وبالسلطان العاتي، كما يفرضان سائر المظالم والجبروت، ولكن من غير المعقول أن يفرض الإنسان ذلك على نفسه طائعاً مختاراً وأن يلزمها به إلزاماً، وألا يلتفت إلى من أراد رجع حريته إليه وإعطاءه ما سلب، بل يعد ذلك عدوه وخصمه فيصاوله وينازله.

طغت هذه الجهالة على العالم الإسلامي، واستبدت به إستبداداً مبيناً، وأجهزت على كل حرية فكرية عنده، وسرقت من العقل وظيفته، فاعتاد أن يأخذ الأشياء قضية مسلمة وألا ينظر أو يفكر أو يبحث أو يشك... بل اعتاد أن يأخذها أخذ تسليم بدون فهم وبدون رغبة في الفهم وبدون أن يرى ذلك مطلوباً. فأصبح من أخلاقه التي تكاد تكون طبيعية أن يصدق كل شيء وأن يقبل كل شيء وألا يحاول فهم شيء. وصار التصديق وتبلد الحاسة العقلية من الصفات

المميزة له والمسيطرة عليه... فبالتصديق آمن بكل الخرافات التي يلقنها بدون عناء حتى صار أعجوبة في إستسلامه المخجل لكل هنة فكرية – ويتبلد الحاسة العقلية وقف دون الأشياء، ودون النفوذ فيها، ودون فهمها بل ودون الرغبة في فهمها حتى عد الشك في الأشياء ومحاولة الفهم للأمور من خصال الكافرين والملحدين المارقين، واعتبر سرعة التصديق وسهولته والوقوف أمام الأشياء ببلاهة وبلادة، كوقوف الأصنام أمام عابديها، من علامات القبول والإيمان. فالشك في المتن أو في الشرح أو في الحاشية أو في التقرير كفر، والإيمان بكل ذلك – فهم أم لم يفهم، صدقه الواقع أم لم يصدقه، ائتلف أم اختلف، صلاح وورع وسلامة عقيدة! والمفروض المأمور به أن يتهم الإنسان عقله ونفسه وأن يجعل أصحاب المتون والشروح والحواشي والتقارير من وراء التهم وفوق الظنون. فمن وجد في كتاب من هذه الكتب تناقضاً أو باطلاً أو كذباً أو جهلاً أو سخفاً وكفراً وجب عليه أن يعتقد أن ذلك من نقص فيه لا في المؤلف، ومن تناقض أو باطل أو كذب أو جهل أو سخف أو عجز في فهمه هو، أما المؤلف فالواجب تنزيهه وتقديسه وتصديقه... وقد غبروا مدى ألف عام وهم مصلتوها سيوفاً مرهفة في وجه كل من يحاول أن يعترض أو يصحح أو يشك بل أو أن يفهم ويعقل... وإلى اليوم لا يزالون شاهري هذا السلاح.

ومن الحقائق المعروفة في المعاهد الدينية الكبرى أن المفروض على الأستاذ المدرس وعلى الطالب أن يصححا عبارة الكتاب وأن يخرجاها تخريجاً صحيحاً وأن يوجدا لها المحمل الحسن وإن كلفهم ذلك التضحية بالعقل وباللغة وبالذوق وبكل شيء.

فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة. وأظهر آثارها كما سبق شيئان: التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل، وغل العقل عن الفهم! ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم. فالشك والفهم شرطان ضروريان في تحصيل الحضارة والعلم والقوة. والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم، والذي لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز، وبالنبوغ والإمتياز فقط تتقدم المعارف وتخلق الشعوب وتقوم الحضارات.

* * *

ومن الواجب أن نعلم أن الوجود الإنساني كله والحضارات الإنسانية أجمع

http://www.ithar.com

إنما قاما على فكرة التطور، وعلى فكرة أن الإنسان مستعد دائماً للتقدم والترقي بكل معانيه، وعلى أن ما أمامه أفضل مما وراءه، وعلى أنه يلزمه أن يبتسم للمستقبل ويبسط إليه يديه، وأن يعبس للماضي وينقبض منه ويقبضهما عنه. على هذه الأفكار الجامعة الصغيرة الكبيرة معاً سارت الإنسانية بخطاها الوئيدة الثابتة نحو هذه الحياة التي تحياها اليوم، وستبقى سائرة في طريقها بإرشاد هذه الأفكار أيضاً وبحفزها وتحريضها حتى تصيب أهدافاً وأغراضاً أخرى تهون في سبيلها كل مشقة. ولو أن الإنسانية كلها آمنت بهذه الفكرة – أي فكرة الرجوع إلى الوراء – كما يريد هؤلاء وعقلت قواها بها لما كان من المستطاع أن تعمل خيراً ولا أن تقضي على شيء من الشرور الموروثة عن الأزمان الأولى وعن أخلاق أهلها. ومن الواجب أن يعلم أيضاً أن نظر الأمة إلى هذه الفكرة مقدور برقيها؛ فالأمة التي بلغت القمة في الرقي وسمو التفكير وفي الإستعداد لأخذ أسمى ما في الحياة من معنى ومن فن تكون أكفر الأمم بها وأكثرها إبتساماً إلى المستقبل وتطلعاً إليه وثقة به وعملاً له. والأمة التي يندر نصيبها من الرقي تأوى إلى هذه الفكرة بعلمها وعملها بقدر ذلك. وعمل الأمم للمستقبل وللعبث وللتجديد إنما ينهض على هذه القاعدة. وقد جلت هذه الحرب ما لهذه الفكرة – قبولاً ورداً – من آثار في الشعوب ومن تقرير لمصايرها وقيادة لها: فلو أن ألمانيا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها من الدول الكبرى اعتقدت بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان وبأن ما عجز عنه القدماء فلن يقدر عليه أبناؤهم وأبناء أبنائهم، لما استطاعت أن تحسن وتجدد في أسلحتها وقواها وعلومها وفنونها وأساليبها، ولقرت عيناً بما صنع قبل ذلك، ولما أمكن أن تخرج القنبلة الذرية ولا غيرها مما دان لقدرة المتأخرين، وكان فوق قوى المتقدمين. ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة إسقاط بريطانيا للرجل الذي أعطاها النصر وانتزعه لها من بين لهوات الهزيمة، إذ لا شك في أن الإنجليز إنما أسقطوا تشرشل لإيمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه... ولا ريب أن شعباً يعتقد هذه العقيدة في تشرشل وفي خلفه شعب يؤمن أشد الإيمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائماً أفضل وأكمل من الماضي وأهله... وإن شعباً تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جداً مباراته أو إنزاله عن سلطانه الضخم الواسع. ولو

أن رجلاً كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذي أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة – بل ومن الكفر بالله – التفكير في إبعاده عن الحكم والقيادة ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحاً لو أريد العمل به، ولكان من المستيقن أيضاً أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين في أرجاء العالم الإسلامي ممن عبدوا مجاناً، لأنهم لم يصنعوا شيئاً يستحقون عليه هذه العبادة التي يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدي.

وفكرة المغالاة في الأموات الماضين هي فكرة من هذه الفكر – أي من فكر عجز المتأخر عن مباراة التقدم ومساواته.

وقد اتضح لنا بعد هذا كيف يجب أن ننظر إلى الماضي وأهله، وكيف يجب أن ننظر إلى المستقبل وإلى أهله، وكيف يجب أن نضع أنفسنا. والويل لمن قعد والناس حوله قيام.

http://www.ithar.com

المشكلة التي لم تحل

يتبين للقارىء، إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل، أو على الفكرة الدينية من حيث هي. فالمشكلة التي ما أظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية، هي أن فكرة التدين قائمة على الإيمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب، لأنه هو خالقها، المهيمن عليها، المتصرف فيها كيف شاء. وهذا السبب الذي هو سبب الأسباب – أي الله على إختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفي حقيقته – لا يحتاج هو إلى سبب في وجوده وقيامه بنفسه وفي فعله وصنعه. فإذا وصلوا إلى الإيمان بهذا السبب وإلى الإيمان بقدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر، شكوا في الأسباب الأخرى التي هي دونه، والتي هي من خلقه وصنعه! وإذا ما صاروا إلى هذا الشك في الأسباب تراخوا فيها وفي الأخذ بها، وفي العمل على إتقانها والتعويل عليها، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الإبداع والتبريز وعن الإنتاج والعمل البارع العظيم. فإن الإنسان لن يكون سببياً محضاً إلا متى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية، تسير إلى نهاياتها ونتائجها أيضاً سيراً طبيعياً، ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو أن تتحكم في نهايتها. وهو – أي الإنسان – لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببياً محضاً؛ فالإيمان بسبب الأسباب يمنعه – على حسب ما توصل وبلغ – من أن يكون سببياً، وعدم كونه سببياً يمنعه من النجاح – هذا هو كله ما استطاعت مدارك البشر الدينية أن تبلغ وأن تعرف. تلك لعمر الله هي المشكلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل حتى اليوم.

فالتصور الديني البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الإله إما أن يكون له فعل وعمل في هذا الوجود، أو لا فعل ولا عمل له؛ أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفي الإله، إذ لا إله بدون عمل وأثر. أما الإفتراض الأول الذي لا بد من الإقتناع به فإنه على حسب الفكرة الدينية – أو على حسب تصور المتدين – يوجب الإرتياب والإستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها. فإن تصرف هذا الإله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولاً في الأسباب وتصرفاً فيها أو عملاً بدونها، أو إيجاداً وخلقاً لها، فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب، فلا محالة من إفتراض قطع

سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء، ثم هو إذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفاً لسبب وإبطالاً ومنعاً له من بلوغ غايته، وإما إعانة له وإبلاغاً للغرض والنتيجة بدونه، وإما إيجاداً وخلقاً له. والإحتمالات كلها معناها الشك في الأسباب والتهوين لشأنها.

وقد يقال بعبارة أخرى – على حسب تصور المتدين: – إن المسألة لا بد أن تفهم هكذا: الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية، فإن كانت كافية فأين الإله وأفعاله وألطافه؟! فهي إذن غير كافية، وإذا كانت غير كافية فهي إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلاً صحيحاً ولا أن يلتفت إليها. ومن هنا يصبح غير سببي.

وجهة أخرى، تلك هي أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصوراً يسمو كثيراً على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين؛ فالله في تقديرهم وتصويرهم – وإن اختلفوا في هذا وتخالفوا كثيراً – لا يعدو أن يكون – في أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه – بشراً مقتدراً، كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم. ولهذا فإنه – أي الإله – يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازي ويعامل على مقتضى إنفعالاته وعواطفه، ويلجأ إلى المحسوبية وإلى الإعطاء والمنع على الشفاعة، ويتحكم في هذا العالم كله على ما تشير به هذه الإنفعالات والتطورات عنده، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها – لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة... فإذا بلغوا هذا المكان من الإيمان هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون على ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون؛ فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل، وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية. لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد، وإذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة. وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجواريهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والإمتداح وكل تلك المخازي الخلقية التي أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافآت وأدبيات.

إننا إذا وضعنا أمامنا ملكاً أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء، وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده، وتصورنا كيف كان يعطي ويقرب الشعراء والشفعاء، وصنوف المتملقين لكبريائه، وكيف كان يحرم ويقصي أهل الجد والصدق في القول والعمل، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب، لأنه أراد ذلك ولأنه رضي، ولأنه أحب أن يمدح؛ وكيف كان يسيل نقمة وعذاباً، لأنه أراد ذلك، ولأنه غضب، ولأنه أحب أن يرهب، ثم تصورنا كيف كان يتصرف في إقطاعياته وفي عبيده، وكيف كان يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً، ولا عقلاً ولا سفهاً، ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال فتصيبهم بالخبال، وكيف كان ينتقم ويثيب: – إننا إذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك، ثو تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون إليه، يلتمسون رضاه وهباته، ويتعرضون لمواقع مجازفاته، وكيف يصبحون شر الأنام طراً، وكيف يعجزون عن أن يفعلوا الخير والصواب، ثم تصورنا قوماً يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها إلهاً، ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة: – إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون – على إختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم – عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة.

وأمر آخر، ذلك أن المؤمنين يرون دائماً أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهد بحمايتهم ورعايتهم في كل أمورهم أو جلها، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله – وهو الكريم القادر – عمن صنع بيديه وعمن أوجدهم إختياراً وإقتداراً... فيصيبهم هذا الإعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين – أي يصاب بالتواكل والإعتماد على القوى الخارجية. وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنعوه وما لن يظفروا به الا إذا صنعوه هم. ولا يمكن أن يكونوا في أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفي لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصامي الذي يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له إلى البقاء.

ثم إن المؤمن يعتقد – عادة – بأن الله إذ تفضل عليه فخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالإنقطاع إلى

http://www.ithar.com

عبادته، زاهداً في خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشؤونه الخاصة، وأن يصرف – إن استطاع – كل قواه وأعماله وأوقاته – أو أكثر ذلك – إلى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل، وإلا فإنه عبد سوء، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرد. وحينئذ يجيء عاجزاً في تناوله الأمور والحياة، ويكون دون ذلك الذي صرف جميع قواه وأوقاته في سبيل الإنتصار في معركة الوجود والبقاء. وما من شيء ينجح فيه المرء إلا على قدر إنصرافه إليه وإعطائه من نفسه ووجوده. وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين.

على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر في إيجاد الإختلاف بين المتدين وغيره في هذه القضية؛ ذلك أن الإنسان – مهما كان تافهاً وصغيراً – لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يرجيه. والعادة أن الإنسان يحاول أبداً أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع. وإذا خير بين أملين – أو آمال – فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال في رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل – وهكذا هو في حياته وفي تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها. ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التي تسلك إليها، لإختلاف الناس في تصورهم وفي إستعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم، وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه. وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال أو عن كل الآمال التي يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها. وإذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه، وأن هذا الإنسان لا يعمل كما يعمل الإنسان الآخر لأن له أملاً آخر، ألهاه عن ذلك الذي شغل الآخر، أو لأنه تصور الطريق تصوراً لم يتصوره الآخر، أو لأمر آخر من هذه الأمور التي تصنع الخلاف والإختلاف بين البشر في أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم.

على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال وأقواها في الإجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدي في تلك الحياة الضخمة الأبدية التي ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التي تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة، والتي تملؤها بالخوف والإكتئاب. فإذا ما استطاع إنسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يَغْنى ويتغنى به، وأن يصرف إليه تصوره والتفكير فيه وفي لذة الظفر به والوصول إليه والحصول عليه، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء في هذا

الوجود، وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئاً، وقد يدع شيئاً قليلاً أو كثيراً. والإختلاف في هذا راجع إلى الإختلاف في قوة إجتذاب هذا الأمل الأخروي وضعفه. وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها لأنه ليس من أهلها، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجلها شيء فيها، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذي صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبي سفيان – وهو يضع خطوط الطريق لإبنه يزيد: "– أما فلان فقد أعجزه الورع، فدع له دينه يدع لك دنياك –" يعني أنه لا يبالي بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان إلى الآخرة وإلى الإستعداد للقائها.

فإذا لاحظنا على المتدينين – أفراداً وشعوباً – عجزا عن إيجاد الحياة وعن التحليق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الإنسانية، أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها، فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والإنصراف إليه بأكثر العقل وأكثر وأعظم الإهتمام؛ وإذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا إذا وجدنا علي بن أبي طالب وأمثاله وجيوشهم ينهارون بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم، وإذا ألفينا الرجل التقي الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة في كل عمل يتناوله أمام ذلك الذي جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته، مصيراً ذلك إلهه المطاع المعبود وربه.

فالمؤمنون إذن يشغلون بأملهم في الآخرة عن أن يصنعوا لهم في الدنيا أملاً جسيماً عظيماً، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذين صنعوا لهم هذا الأمل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم، فأصبحوا فيها السادة الغالبين.

ومن المعلوم أن أوروبا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرأه، فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروي وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هي آلهتها التي وحدتها وأبت الإشراك بها، صعدت بالحياة هذا الصعود الذي أعجز أبصارنا تنوره والنظر إليه. وقد قال أحد فلاسفة الإنجليز المعاصرين المدرسين اليوم في إحدى الجامعات البريطانية – وهو ملحد كما هو ظاهر: "– إن أوروبا لم تستطع أن تكون أوروبا إلا بعد أن إعتقت نفسها من رق الإيمان

http://www.ithar.com

بالآخرة وبالله."

وقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاماً مثلاً طيباً للفقر والضعف والمسكنة والجهل، حينما كانت مسيحية متدينة صالحة! فلما أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لها أرباباً آخرين وعبادة أخرى، صارت هي روسيا اليوم، قاهرة ألمانيا التي لم تكن تقهر! ولعل من الطريف أن روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد ألمانيا العبقري. وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهدين: القيصري والبلشفي، أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء، وعوامل التحول قائلاً: "لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين في الزمان القيصري يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وفقرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الإجتماعي إلى القوى الخفية المجهولة، فكانوا يومذاك مثلاً رائعاً في الإنحطاط، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك إلى المصنع والمحراث والمدرسة، فصاروا هم الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها."

وكذلك القول في تركيا وفي كل الأمم الحديثة والقديمة.

ولعل الفرق يظهر جلياً في دولتين شرقيتين متجاورتين، وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول. فاليابان، وأن كان للدين البوذي وبقايا ومعابد وتماثيل، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئاً، وإن أبقت بعض تلك الأشياء على جسمها الخارجي! والدين الشنتوي الذي تقمصته الروح اليابانية هو الدين الذي يوجهها ويمثلها، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك. وهو دين يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة، وعلى عبادة الجمال والقوة المادية. ولهذا فإن اليابانيين يبالغون جداً في تصور الجمال وفي إدخاله على كل وجوه الحياة، حتى على لعب الأطفال وأحذيتهم الخشبية وأصغر الأمور التي يعملون. وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص، يتعبد بها وبتلاوتها، وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء. وخلاصته أنه دين طبيعي أو أنه دين الطبيعة في أعم معانيها! ومن ثم كان أهله من أشد الناس إتصالاً بالطبيعة وحباً لها.

أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشيوسي وسواه بما لم يستطيعوا القيام منه، لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال، ومن التأميل بالمستحيل والتحويل على ما لا حقيقة له، فعجزوا عن النهوض، وعجزوا عن الإفاقة، على رغم القوارع والمنبهات التي تطرقهم كل حين من الداخل ومن الخارج، وعجزوا عن أن يتخلصوا من تلك الأكفان البالية الزرية التي لفهم – بمهارة فائقة – فيها كنفشيوس وغيره من سحرة المتنبئين! ومن أشنع ما في هذا الدين، الذي يتصوره أهل الصين، أنه يجعل السعادة والراحة والحياة الصحيحة في هذه الحياة مستحيلة، وأن من الواجب طلبها وتأميلها وإنتظارها بعد الموت لا قبله، ثم ما يوصي به من التلفت إلى الماضي السحيق المظلم، ومن الإحتذاء والإقتداء بالماضين الذاهبين.

ومن أجل الإختلاف بين هذين الشعبين الشرقيين وجدت الأمة اليابانية المخيفة – على رغم هزيمتها الحربية الأخيرة – ووجدت الأمة الصينية الفقيرة المغلوبة على جميع أمرها.

أما الهند فإنها تعد اليوم – وقد كانت كذلك قبل اليوم، وأظنها ستبقى هكذا زماناً طويلاً – أحد الأمثال المضروبة العقيمة التي تصنعها الأوهام الدينية، ويشوه وجودها الخيال المشوه الكذوب، على رغم سابقة هذا الشعب المعترف بها في الحضارة القديمة والفلسفة العريقة، التي كانت أحد الأضواء المضيئة للإنسانية يوم أن كانت تعيش تحت الظلام... وقد عجز الهنود عن أن يجدوا لهم في هذا الوجود أملاً حاراً ملهماً ملهباً يحفزهم على النشاط وعلى الإحسان في وجودهم. وقد تقطعت أنفسهم إعياء، تطلعاً إلى تلك الآمال والأماني المذكورة المذخورة لهم وراء هذا العالم، وسعياً وراء تلك الخيالات الدينية الساحرة اللذيذة، التي لم يستطع طول تناولهم لها أن يصيبهم بالإقهاء أو بالملل والسأم الذي يحدثه عادة طول الملازمة والمقاربة. ولا شك في أن من أعظم أسباب إندحار هذا الشعب العريق في التاريخ وعجزه عن حياة السيادة والإستقلال، وعن الحياة الإنسانية المحترمة، هو كثرة أديانه وما فيها من سخافات ومجالات ومعوقات. وليس مما تقر له عيون أنصار الأديان أن نقرأ في هذه الأيام أنباء الإختلاف الكبير المرير بين الهندوس والمسلمين على مصير الهند إذا تبرع الإنجليز وخرجوا منه! وهذا كما لا يخفى قبل أن يفعل الإنجليز ذلك، بل قبل أن

http://www.ittar.com

يفكروا فيه تفكيراً جاداً! فأعجب له من خلاف، وأعجب لهم مختلفين! ولعل مسألة البقر المقدس ومسألة ذبحه وأكل لحمه من أعظم ما يشغل الفريقين اليوم، ومن أعظم ما يهيء للبريطانيين البقاء هناك والتدخل للحماية والفصل والحكومة! والعقلاء يعلمون اليوم جميعاً أن الهند لن تظفر بالحياة المرتجاة ما لم تغير أديانها أو تغير فهمها لها أو تتركها – وهكذا القول في كل الأمم والشعوب التي مثلت دورها في رواية التاريخ العامة وفرغت منه، والتي لا تزال تؤدي دورها، والتي لم توجد بعد. وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل في هذه الحياة ومن الدوران حولها. وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة، لأنهم كانوا يبالغون في حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود. ومن جميع الأمم التي تصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد، إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى حتى إن رجلاً فيلسوفاً عظيماً، هو الدكتور جستاف لوبون، لما أن لاحظ هذا في كتابه الموسوم "بالآراء والمعتقدات"، "إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر". لأنه – على ما زعم – قد وقف بالحضارة عن التقدّم والسير إلى الأمام "ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود آنية وعبادة الأصنام!!"[1]...

وهو يريد بعهود الوثنية تلك العهود التي سادت فيها عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة، كالذي كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون، ويعنى بعهود التوحيد والإيمان، التي تزعم أنها وقفت بالإنسانية، تلك العهود التي أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا، كعهود أنبياء بني إسرائيل وأسباطهم، وجود الكنيسة في القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين، وعهود الغزالي والشعراني وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين؛ فإن هذه العهود – على حسب ما رأى وقال – كانت نكبة على البشر أجمع، لأنها لم تستطع أن تصنع لهم شيئاً سوى التأميل في الآخرة. أما تلك العهود الوثنية فإنها – كما يرى ويقول – ناهضة على حب هذا الوجود إلى حد العبادة، فاستطاعت – يدفعها هذا الحب وهذه العبادة – أن

(١) ونحن نبرأ من كل إلحاد وزيغ. وليس عرضنا لهذه الأقوال من أجل الإيمان بها، ولكن من أجل الإعتبار وطلب الفائدة.

تضع أساس هذه الحياة التي يتمتع بها إنسان هذا العصر السعيد. فكأنها قضية مفروغ منها، تلك هي أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها.

ومن الملاحظات الفردية في هذه القضية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون في التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الإنسانية هم دائماً من غير الأتقياء الورعين وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم. حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس في تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا في سماء الشعر أو الأدب الخالد، أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات، لم تجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والإنحلال الديني؛ أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ وابن سينا والرازي والفارابي وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم... ولا نزال حتى اليوم نرى أنه لا يقوم بتصريف شؤون الدولة الكبيرة، كالوزارة والسفارة وأمثالهما، إلا جماعات تختار من غير الأتقياء، حتى أممنا التي شهرت بالتدين وبتأسيس ملكها وحكمها على أوامر الله، نجدها تعرف هذا وتعترف به وتكل أمورها الرسمية ذات الشأن إلى غير المتدينين. وهذا لأنها تعلم بالإستقراء والتجربة أن هذه الشؤون إذا أسندت إلى جماعات الصالحين لم يحسنوا أو لم يستطيعوا القيام بها – ولأن هؤلاء من جهة أخرى لا يستطيعون بنبوغهم وسعيهم أن يصلوا إلى رضا من إليهم المصير ومن بيدهم الحل والربط والإعزاز والإذلال. فيبقون خاملين منسيين مبعدين. وقد قال الخليفة الملهم عمر بن الخطاب: "لوددت أني وجدت رجلاً تقياً قوياً مسلماً استعمله..." وقال مرة أخرى حينما حار بين الأتقياء والأقوياء:

"أشكو إلى الله جَلَد الفاجر وعجز الورع." وكلنا الآن إذا أردنا أن نشتري شيئاً أو أردنا من أحد أن يصنع لنا شيئاً – حتى لو أردنا أن نطبع مثل هذا الكتاب – لم نجد بداً من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور، إذا كنا حقاً نرغب في الإتقان والجودة والكمال أو القريب من الكمال. أما إذا شئنا لأنفسنا الصناعة الرديئة أو الصنف الرديء أو إخلاف الوعود أو الحصول على الأكاذيب المتلاحقة، فإننا حينئذ لا نجد بداً من أن نقوم بعملية تفتيش عن هؤلاء

http://www.ithar.com

الأتقياء وعملية تلمس لهم في جحورهم المظلمة.

ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكري الذي توزن به الأمور في الغالب، ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طيبين خيرين، فاقدين لكل مناعة عقلية مستعدين إستعداداً غريباً للوقوع في حبائل المشعوذين والدعاة المضللين، عَمَيْن عن كل الحقائق التي يراها ويستفيد منها الآخرون، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل إرتفاعاً عجيباً، وتنفق بينهم سوقه، وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين – دينيين وغير دينيين، ويصيخون لكل ناعق، ويهبون – بسخاء نادر – جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل. لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل، والصادق من الكاذب، والقائد من الصائد، فصدقوا المستحيلات والمتناقضات وآمنوا بأشنع الترهات، لأن العاصم من كل ذلك – وهو العقل – قد أبعد وعزل.

وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التي كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ إنهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ إستعدادهم لتصديق ما لا يجوز على العاقلين، بدون مقاومة أو إباء. وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التي كانت توجه إليهم، ونتعجب من السخف والكذب الذي يجيء فيها، ونقول كيف يرجو هؤلاء العقلاء – إذ هم عقلاء بدون ريب – أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشيء منه! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف المناعى العقلية لديهم! فإن هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضاً – وكانت تنفع.

ومن أجل هذا الضعف في المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الإنسانية وعلى أفضل صفات البشر؛ فإنك لن تلقى في حياتك – ما عشت – منظراً أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية، في سائر العلوم التي قاومت الجهل والسخف عند غيرنا وطاردتهما، يحشدون بشكل يزري بالإنسان، تحت ركاب رجل هو أقل منهم في كل شيء مما يتصل بالقيم الإنسانية، ليسوقهم – بدون وعي ولا معارضة منهم – ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه، ثم ليملي عليهم ما يشاء وما تشاء له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل إلى المجد الذي حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التي يفرضها لشخصه الكريم، بإعتباره الإنسان المقدس الطاهر المعصوم الذي يجب أن يطاع طاعة عمياء، والذي يجب ألا يخطر

على البال، بالنسبة لذاته الكريمة، توجيه عبارة من عبارات الإستفهام – دع الإعتراض وما هو أشد منه – فترتفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعي الخير وبين أتباعه الخيرين كلمات: "لم" "كيف" "من أين" "إلى أين." وليس لهذا الصنم الأرضي الذي ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمتم بها ويطلقها على ضحاياه وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور.

وليست روح التسليم العقلي عند المتدينين بجديدة، بل هي روح ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا. حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون في ذلك مجالاً لا بأس به للسخرية، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية! وقد طار في كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهكمين الساخرين – وهو أبو العلاء، وقد قسا كثيراً:

إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا
دين، وآخر دين لا عقل له

* * *

ما لي أرى كل الأنام لجهلهم
بالدين أشباه النعام أو النعم
لو قال ذئب غضاً بعثت بملة
من عند ربي قال بعضهمو نعم

ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الإستسلام والضعف الفكري لدى هؤلاء المتدينين. والذي يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلي وتعليل ثابت! بل يرون أن الوجود كله – بما فيه من حوادث وأحداث – محكوم بقوة مجنونة – أو هي كالمجنونة – في أفعالها وتصرفها! ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق، فكل شيء جائز، وكل شيء مستحيل... فيصابون بالفساد الفكري العام، وإذا اختلت الوسيلة فكذلك النتيجة، وإذا انهار الأساس انهار بلا شك ما رفع عليه!! ولن تجد ميزاناً فكرياً لدى هؤلاء الذين يعيشون في هذا الجو المسحور المجنون المائج بالخوارق والمعجزات والكرامات التي صنعها الشيوخ والصالحون – ساخرين من القوانين الطبيعية!

وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا، كما علل بعض علماء

http://www.ithar.com

النفس والإجتماع القسوة التي يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا، وأخذهم خصومهم أخذاً خالياً من الشفقة والإنسانية – بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين، وكثرة قراءتهم النصوص التي تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات. فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين، وتفترس على حسابه! ومن ثم فإننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة إلى الدين، الناطقة بإسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح في يدها لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهاب يستنكره العالم اليوم. وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأي والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان. ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً من إنسان يثب على عنقك ومالك، يقتلك ويسلبك. معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك، ويجاهد في سبيله، وينفذ أوامره وشرائعه!! والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين: لعله لا ينطلق.

كل هذه الحقائق لا ريب فيها. ولكن ما معنى هذا؟ هل معناه أن الدين مفسد للبشر، خائل بينهم وبين الكمال، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الإنسانية المبدعة؟ كلا، ليس هذا هو المراد ولا هو الصحيح، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوباً بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل. وإنه لكذلك إذا أخذ وفهم على وجهه.

ولكن ها هنا شيئان: أحدهما أنه إذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضاراً ومفسداً لأخلاق الإنسان وكل معانيه الطيبة، أو التي يجب أن تكون طيبة، كما سبق البيان.

وثانيهما أن البشر عاجزون – في ما يبدو لنا حتى اليوم – عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين، أو متدينين تديناً باطلاً – كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان. ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة.

ويظهر أن المبادىء الإنسانية العظيمة تأتي دائماً سابقة لإستعداد الجماهير من البشر. فإذا دعوا إليها أو فرضت عليهم – قبل تمام هذا الإستعداد – أخذوها أخذاً سيئاً ضاراً بهم وبالمبادىء نفسها، وذهبوا يعملون بها على غير

وجهها وصوابها. ومن هنا تأتي النكبة. وكلما تقدم نضج الإنسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادىء الجميلة التي تسبق إستعداده. ولا شك في أن الناس اليوم يتصورون الديمقراطية والعدالة الإجتماعية والنظام العام للسلام، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات، ولغير ذلك من مسائل الإنسان العظمى، تصوراً هو أرقى جداً من تصورهم لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين، كما أن تصورهم لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائماً. وهم أبداً يقومون بعملية تخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاماً أرقى وأفضل. والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً، لأنها جاءت قبل إستيفاء إستعدادهم الموقوت، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل. وكان من نتائج ذلك أن نهض في الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها، لأنها في ما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق. والواقع أن الذين تحجروا وسدوا الطريق هم المتدينون لا الدين نفسه. ولا ريب عندنا في مجيء ذلك اليوم الذي يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها. وحينئذ – حينئذ فقط – تبلغ بهم السمو المقدر لها ولهم.

والإنسانية – كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف – لها ثلاث حالات: إحداها أن تكون بلا دين، لا باطل ولا صحيح، وثانيها أن تكون على دين باطل – أي على دين تتصوره بالصورة التي شرحناها في هذا الكتاب، وثالثها – وهذا خيرها بلا شك عندنا – أن تكون على دين صحيح، تدركه إدراكاً صحيحاً. وهذه الحالات الثلاث هي على ثلاث درجات. ولا شك أن الحالة الثانية هي شر الحالات، وأن الأمة التي تكون متدينة بهذا الدين تأتي عاجزة عن مقارعة الأمتين الأخريين، وأن الأفراد الذين يكونون متدينين كذلك سيصرعون لا محالة إذا حاولوا منافسة الآخرين ومقاواتهم من أفراد هاتين الأمتين أيضاً. ولا يجب أن تغبط الأمة التي تحرص على مثل هذا الدين، إذ أن مصيرها بين الأمم مقرر معروف. وما هو إلا مصير هذه القطعان الآدمية المتزاحمة على البؤس والشقاء والجهل والإستعباد، في آسيا وأفريقيا، التي نسميها أمماً وشعوباً، تلك القطعان

http://www.ithar.com

التي تلهب جلودها الملونة سياط هؤلاء البيض منذ قرون، بدون أن تستطيع المقاومة أو الهرب والشرود!! وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا في سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين، ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبداً أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف، بل إن ذلك ليعجبهم ويرضيهم! وإنهم لعلى إستعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية، وأن يصنعوا في هذا الغرض كل شيء وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض! إذ أي ضير يصيبهم من ذلك؟ ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم إستعداد – إذا لم يمنع من ذلك مانع – أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها. وإنهم يخشون ويحترمون في وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة، ويقرون عيناً – مع الإحتقار الشديد والفرح البالغ – بأمثال ذلك الرجل الجامد – ذلك الرجل الذي قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض، والذي أمر رعاياه في العام الماضي بقراءة القرآن والبخاري لرفع الوباء الذي اجتاح بلاده التي ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة؛ هذا الرجل الذي عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة، لإنقاذ بلاده البائسة الشقية من طاعون وفد عليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة، فرد هذه المساعدات قائلاً: إن الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة؟! هذا الرجل الذي يمضي في بناء السجون في بلاده، بينما تمضي كل الأمم في بناء المدارس والمصانع والمصحات!! وإن هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب إلى قلوبهم وإلى رضاها من أولئك الذين يوسمون بالإلحاد والزيغ، ممن يعملون على إيقاظ الشعور القومي وعلى بعث الكرامة الوطنية السجينة في النفوس تحت هذه الأنقاض المحطمة المتراكمة. وقد حدثني أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر إلى بلاده التي يقبض عليها الإستعمار بقسوة وإحكام، فلم يستطع أن ينال التصريح الذي يبيح له السفر، فلجأ إلى حيلة لطيفة، هي أنه تزيى بزي رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والإرشاد، واضعاً على رأسه عمامة تزري بالهرم، وعلى كتفيه جبة تتسع لإيواء كل الشياطين، وتحت إبطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحي. قال وقد نجحت هذه الحيلة أعظم نجاح، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الإحترام والتوقير والسرور. وقريب من هذا ما حدث قبيل

هذه الحرب في البرلمان الفرنسي، إذ قام أحد الأعضاء – على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون في المغرب العربي – قائلاً: إن فرنسا دولة علمية إلحادية، فما لها وللتبشير!؟ فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك. فقام الرئيس فرد عليه رداً ما أعجبه! إذ قال إن هذه – يعني العلمانية الإلحادية – بضاعة محلية لا تصدر إلى الخارج!! وقصده من هذا أن الدعوة إلى الأديان يجب أن تبقى مستمرة نشيطة في المستعمرات وإن حرمت في فرنسا نفسها. ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم – أي الفرنسيين – لن يصدروا الخير إلى الخارج مجاناً ويحرموا بلادهم منه. ودهاة الإستعمار في العالم يعلمون أن نفوذهم وبقاء سلطانهم في بلادنا المغلوبة مقدور بما في هذه البلاد من رجال الدين ومن شيوخ الطرق الصوفية، وأنه بمقدار ما ينقص هؤلاء ينقص نفوذهم ويدنو أجلهم، وبمقدار ما يزيد ذلك ويأخذ في الرسوخ والبقاء. ولهذا فإنهم يعضون على هؤلاء الشيوخ والعلماء بالنواجذ، ويعملون على توسيع سلطانهم ورفع مكانهم بين الجماهير والدهماء، إذ هم أحسن لهم من الجيوش المدججة بالسلاح؛ من شر ذنوب الإستعمار دأبه دائماً على نصرة الرجعيين وتحطيم الأحرار وعلى البسط للأفكار والعقائد المؤخرة ومطاردة المقدمة. وكل هذا لا يخفى إلا على من أضله الله ولم يرد هو أن يهدي نفسه.

هذه قضايا قد أن الأوان لأن تكون معلومة؛ نعم، ولكن ماذا أريد أن أقول؟ أقول إن التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد؛ ولكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أني أريد الإستغناء عن الدين؟ كلا، فالدين حاجة من حاجات الإنسان التي لا يمكن أن يستغني عنها. ولكن ثبت أن البشرية عاجزة – إلا في ما ندر – عن فهمه على وجهه الصحيح، هذه هي المشكلة التي لم يستطع حلها بعد. وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير في سبيلها الطويل الشاق، لتبلغ هذه الغاية التي بلغتها! وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر في الظلام! وكم حبب إليها الألم والعذاب في تحويمها حول أهدافها الكبرى! وإن كل ما نحن فيه اليوم ما هو إلا إحدى نتائج هذا التحويم. ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة الإلهية السماوية – التي هي الدين – لتقرر مصير الإنسان على نحو آخر من النهايات – وما كان مستطاعاً أن يستغني البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل في حياتهم أو يصنعوا لهم

http://www.ithar.com

أملاً آخر، إذ لا حياة بدون أمل.

وإذن فهل معنى عجز الإنسان عن أن يفهم التدين والدين فهماً صحيحاً أن الواجب عليه، أو المستحسن له، أن يتركه وينأى عنه! كلا، وإنما الواجب أن ننفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه، وهذا هو عين ما فعلناه في كتابنا هذا.

وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة إلى تصحيح التدين وتصحيح الأديان. وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الإنسان الكبرى.

أيها القارىء الكريم:

من الجائز أن أكون قد أخطأت أو بالغت في بعض المواضع، ولكن أمرين يجب ألا يقع عندهما خلاف ولا يسوء فيهما فهم؛ أحدهما أني كنت مخلصاً في جميع ما كتبت، وأني ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العزيزة. وليكن هذا شفيعاً لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو بعض الشروح والتفصيلات. وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ولكني حاولت أن يكون هذا الإيمان سليماً قوياً، وأن يكون كإيمان عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وأمثال هؤلاء، وأبيت أن يكون مثل إيمان الشعراني والغزالي وابن عطاء الله والأسيوطي وغيرهم من شيوخ الطريق وحداة الجهالة ورسل الفقر – ممن نكبوا البشر وانحرفوا عن الغاية التي يجب أن يبلغوها.

http://www.ithar.com

عناوين الكتاب الرئيسية

مرفوع إلى ٦
قبل البدء ١٣
لقد كفروا بالإنسان – الإيمان به أول ٢٧
العلم حجاب – الجهالة أم الفضائل – أكثر أهل الجنة البله –
هكذا قالوا ٧٧
الإنسان هي أم سلعة ٩٥
كراهة الحياة الدنيا – إمتداح الجوع والفقر والمرض – الدعاية
الواسعة للزهد المخدر – هل جاء الدين لمحاربة العمران؟ ١٣٦
هل في سنن الله محاباة – الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم–
كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة ٢٠٧
كيف فهما وكيف يجب أن يفهما وكيف قررا مصاير الشعوب ٢٥٥
التوكل – أوهام الناس فيه – كيف يفهم ٢٨٠
الأسباب – كيف فهمها الناس وكيف تفهم ٢٩١
أمامنا لا وراءنا ٣٠٧
المشكلة التي لم تحل ٣٣٧
أيها القارىء الكريم ٣٥٣

http://www.ibtar.com